
الهيئة العامة لقصور الثقافة
تجليات أدبية
12
البشروش
السيد الخميسي
رواية

البشــروش

السيد الخميسى

وزارة الثقافة





الهيئة العامة لقصور الثقافة
تجليات أدبية

- البشـروش
- السيد الخميسى

- تصميم الغلاف: غادة خليفة
- المراجعة اللغوية:
أشرف عبد الفتاح
الطبعة الأولى 2013م
الهيئة العامة لقصور الثقافة
- رقم الإيداع: ٢٠٥٢٤/ ٢٠١٣
- الترقيم الدولى: 978-977-718-544-8
- الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

البشــروش

بين الشعر والرواية

المكان: مدرسة القناة الإعدادية للبنين فى شارع كتشنر المطل على البحر أكثر شوارع االمدينة نظافة وجمالا، بعد المدرسة بأمتار يرتفع "برجا" أشهر كنيسة فى بورسعيد بعمارها الأوروبى الفاره، بعدها بأمتار قليلة تلوح قبة أشهر مسجد فى المدينة بعمارته الإسلامية العريقة.

الزمان: سنوات قليلة بعد معركة بورسعيد التى بهرت العالم.

وأنا على أعتاب الصبا قادم من جوف المدينة، من أقصى حى العرب، جالس فى فصل " ثانية رابع " أتنشق هواء البحر المفعم برائحة اليود، أملأ عينى بزرقتة اللامتناهية يهدر فى أذنى صوت أمواجه العفيَّة الرتيبة وهى تتكسر على الرمال.. وفجأة ودون سابق إنذار أجدنى أقول الشعر:

هايم فى دنيا هواك والشوق مغلبنى
وان كنت قلت انساك حبك يكدبنى

إنها نفس النشوة التى اعترتنى لحظة اكتشافى رجولتى فجأة ودون سابق إنذار أيضا .

يتقاطر زهوى وأنا أسير بين أقرانى . . وحدى أمتلك نشوتين .

أخذنى مدرس اللغة العربية - وكان يقرض الشعر - إلى صديقه حامد البلاسى تعجبت وقتها كيف يكتب الشعر وسط ضجيج شارع التجارى وزبائن محل العطارة من النسوة اللائى لا تكف أفواههن عن الكلام، قدمنى البلاسى لمسابقة أقامها الاتحاد الاشتراكي، تسلمت إحدى جوائزها فى نادى المعلمين - كان من قبل ناديا للجالية المالطية فى بورسعيد - أنظر فى المرايا. . أنظر إلى الضيوف فى ملابسهم الأنيقة الغالية. . أنظر فى وجوه الشعراء الكبار وقد كساها الشعر هيبة ووقارا. . أشكرك أيها الشعر.

فى الجامعة صادقت زميلى سليمان العطار. . صاحب أكمل ترجمة لرائعة ماركيز (مائة عام من العزلة). . لم أتفوق عليه أبدا فى أى مسابقة شعرية تقيمها الجامعة. . أعجبت أشعارى دكتور يوسف خليف مازالت عندى ملاحظاته بخط يده فى أوراقى. . قال: كانت العرب تقيم الأفراح والولائم إذا ظهر فيها شاعر، أنا أحسدك على الشعر. . قتل البحث العلمى شعرى. . يضحك ضحكة دافئة مجلجلة وأنا أقول: شعرى كله وحياتى لقاء كتابك " الشعراء الصعاليك ". .

غير حياتى هذا الكتاب علمنى كيف يكون الشعر تجسيدا للحرية، يقول "عروة ابن الورد":

" إنى امرؤ عافى إنائى شركة   وأنت امرؤ عافى إنائك واحـد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى   بجسمى شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة   وأحسو قراح المـاء والماء بارد"

.. كان صوت الاشتراكية عاليا فى ذلك الزمان.. رأيت فى الجامعة " حجازى " و"نجم" و"الشيخ إمام"، وزاملت زين العابدين فؤاد فى فريق الجوالة.. كان يمشى كالطاووس فخورا بشعره.. كان طفلا شاعرا ثائرا يتلعثم ولا يزال.. كانت تهمته فى ثورة 18 و19 يناير التحريض على الثورة.. قال للقاضى: هل هذا صوت يحرض على الثورة ؟ إنه الفلاح الفصيح يتلاعب بأعدائه.

يقول طه حسين:" اللغة العربية شعر ونثر وقرآن "، فهمت هذا الكلام فى وقته بوصفه هروبا من معركة شرسة خاضها مع الأزهر بسبب كتابه "الشعر الجاهلي" نفس المعركة التى خاضها صاحب كتاب "الإسلام وأصول الحكم" الذى آثر السلامة أيضا.. دفع مجايلى نصر حامد أبو زيد ثمنا غاليا.. لنرجع إلى الشعر والنثر ولنترك المقدس فمازال الكلام فيه محفوفا ب المخاطر.

ظللت لفترة طويلة بعد تخرجى من الجامعة – وربما لكونى شاعرا–

أسيرا للمقولة الشهيرة " الشعر ديوان العرب " حتى فاجأتنا مقولة شهيرة جديدة " الرواية ديوان العرب ".. الرواية فى صورتها الكاملة بوصفها - جنسا أدبيا حديثا ومكتملا - وفد على الثقافة العربية فى العصر الحديث بعد وصول المطبعة والترجمات والبعثات وصار صرعة سرت فى جسد الثقافة العربية مثل النار فى الهشيم.. حينما قرأت الشعر والنثر العربيين القديمين ونظرت فى كتب النقد القديم والحديث وجدت أننا يجب أن نتخلص من تلك الثنائيات العقيمة، هكذا علمنى أستاذى شكرى عياد.

درست كتاب "عيار الشعر" لابن طبا طبا العلوى على يد محققه د حسين نصار.. الشعر هذا الجنس الأدبى المدلل، لماذا يستعصى على التعريف، من قدامة ابن جعفر حتى سوزان برنار ؟

أحببت الشعر حبا جما.. لقد وافق هواى تماما فلطالما كنت طائشا متهورا سريعا ونافذا عنيفا ومندفعا رقيق الحاشية قريب البكاء قليل الحذر لاأصبر على ظلم، أنتفض لأقل نبأة كمن يجلس على فوهة بركان.

ظلم النثر العربى القديم -والجديد- أمام هذا الطائر الطائش الراقص.. الشعر.

هل يمكن أن نتجاهل نصوص "ابن عربي" و"النفري" و"جلال

الدين الرومي" وتلك النماذج النثرية الفريدة لكتاب عظام على مرالعصور العربية ؟

دهمنى الشعر فى بداية صبايا، قدرا ثمينا موازيا للحياة، أما الرواية فقد سعيت لها بقدمى لأسباب كثيرة بعضها متصل بالشعر وبعضها متصل بالرواية وبعضها متصل بأحوال المناخ الثقافى أو السياسى.

بدأت كتابة الشعر رمانسيا خليليا.. بعد تعرفى على شعر الرواد "صلاح عبد الصبور" و"حجازي" و"عفيفى مطر" و"بدر شاكر السياب" وغيرهم.. ومتابعتى لمجلة الشعر أيام "عبد القادر القط" تحولت تدريجيا إلى الواقعية والتفعيلة، وما كدت أبدأ مشروعى الشعرى حتى مات جمال عبد الناصر وجاء السادات حاملا معوله لهدم ركائز الدولة الحديثة الدين والاقتصاد والثقافة والسياسة، ففر إلى الخارج من فر وصمت من صمت، وقتل الإسلامبولى السادات ورموز الدين والفكر والثقافة والسياسة فى السجن، واستمر معول الهدم على يد رموز الفساد حتى قام الشعب بثورة يناير، وطوال تلك السنين العجاف ظللت أكتب شعرا ممنوعا محرما على مؤسسات ثقافية وإعلامية يحررها موظفو أمن الدولة وأرباع مثقفين منافقين ما كانوا يجدون مكانا إلا فى ظل الفساد والجهل، واصبح المخبرون نقادا وخلت ندوات الشعر من الناس وكاد أن يفقد الشعر دوره التنويرى

بعد أن حوله بعض الشعراء إلى فوازير ولوغاريتمات، ولولا أن نشر لى د عبد القادرالقط فى مجلة "إبداع" وكتب عنى ناقد من سلالة النقاد الكبار هو "د محمود الربيعى" - لم أشرف بمقابلته حتى الآن - ولولا بقية من أصدقاء فصحاء مخلصين شعراء وصحفيين حقيقيين أتاحوا لى على فترات ما تيسر من النشر ماانتبه لى أحد.

خالى "الدسوقي" من الحكائين العظام كان عزوفا عن الكلام يحب الصمت والوحدة، فإذا التف حوله أصحابه من الصيادين وبدا الحكى يصمت الجميع كأن على رؤسهم الطير.. أورثنى خالى حب الحكى وأسراره وفنونه.

لطالما قال لى صديقى د مدحت الجيار أقلل من الحكى إنه إهدار لطاقتك الا بداعية، وفى إحدى المرات قال لى أحمد عبد المعطى حجازى و كنت أحكى عن بورسعيد اكتب هذا الكلام.. كيف أكتب الحكى ؟ الحكى لا يكتمل إلا فى حضور الناس.. والحكاية تحكى عن الماضي، هى تاريخ بصورة ما، وفى التراث تبدأ بكان يا ما كان إنها تتعامل مع الماضى - الجاهز- ومع كاريزما الإلقاء وروح الارتجال .. أما الرواية فهى شيء آخر أكثر تعقيدا.. لا تلتزم الرواية الترتيب الزماني، فيها الماضى والحاضر والمستقبل، ولها مستويات من الزمان الداخلى والخارجى وزمن الحكى وزمن القراءة، والمكان وحركة الراوى بين

الداخل والخارج والشخوص والحوار والأحداث إلخ إلخ . .

إننى شاعر يكتب شعرى جنى يسكن وادى عبقر، ما لى والروايه وقد بلغت الخمسين.

عرضت بعض ما كتبت على الروائى الكبير خيرى شلبى قلت له هذه بروفة إلى أن أجد اللغة المناسبة قال الرواية تصنع لغتها، طرحت كل ما عرفت من نظريات وواصلت الكتابة، كتبت عما أظن أننى أعرف، كتبت عن نفسى وعن بورسعيد، كتبت شيئا يشبه السيرة الذاتية ولا يشبه كتابة أحد، لا "داريل" فى رباعيته ولا "إدوار الخراط" فى اسكندريته .

فى الجزء الأول " البشروش" كتبت بورسعيد أيام 56 من عينى طفل وفى الجزء الثانى " " الفرائس " رصدت هزيمة 67، وإن أمهلنى العمر أكملت ما فى يدى من أوراق البشروش.

الجزء الأول: الوطن الجميل

الخواجة جورجي

- ابنك ذكى يا محمد

- سأعلمه وسيدخل الجامعة

يضع كمية كبيرة من صفار البيض فى "طاسة" كبيرة مع قطعة كبيرة من السمن البلدي

- كل يا ولدى.. كل.. لا بد للرجال أن يأكلوا جيدا

يبسط بقايا الدقيق على طاولة العمل الرخامية، يكتب بإصبعه

- قل ورائى ألف باء جيم

صورة الخواجة فى صدر المحل، تحتها فاترينة تمتد طوليا فى المنتصف تماما، فيها أصناف الجاتوه، وعلى الأرفف زجاجات بأحجام مختلفة وأشكال جميلة مرصوصة بعناية، بجانب علب الشيكولاتة الفاخرة.

يطل المحل مباشرة على ميدان "المنشية" فى حى "الإفرنج" قريبا من قناة السويس.

أتسلق درجتى السلم مستعينا بيدى ورجليّ، يساعدنى "المحصل" على الصعود إلى المقعد العالي، أقول باعتداد بلغة ممزقة: "ميدان المنشية"، يضحك "المحصل" ويقول: يعنى آخر الخط، ولا يأخذ منى نقودا.

هناك خطان للنقل الداخلي، واحد يسير فى شارع "الثلاثيني" والآخر يسير فى شارع "كسرى" - أمام بيتنا - ينتهى الخطان إلى شارع جانبى ينفرع من ميدان "المنشية" أمام "كاتدرائيتين" عملاقتين متقابلتين، أنظر إلى الإعلان الضخم على الناصية.. رجل عملاق ملفوف بالكاوتشوك أمام محل "لهيطة" لبيع إطارات السيارات، بجواره على اليمين محل الحلويات الذى يعمل فيه أبى.

أصر الخواجة "جورجي" أن أحضرمع أبى كل صباح، يقول: "العربي" وشه حلو"

وافق أبى أخيرا، خصوصا بعد تلك الحادثة التى ما زالت محفورة بأعماقى.

كان الوقت شتاء، هبط الليل وأنا أبحث عن محل أبي، أدور حول الميدان الصامت، المحلات المغلقة متشابهة، وكذلك الشوارع المتفرعة عن الميدان، عدت إلى نهاية خط "كسرى" بين"الكاتدرائيتين".. لا أثر

للسيارات، فقط الظلام وصوت الريح وهذه الحوائط المرتفعة التى تسد وجه السماء.

سرت قليلا تحت "البواكي" الشاهقة أحتمى من المطر وحبات الثلج الغزيرة المنهمرة، يسلمنى شارع إلى شارع، و"باكية" إلى "باكية"، وفجأة وفي وقت واحد تنفتح النوافذ و"البلكونات"، وتنهمر الزجاجات الفارغة، وأنا فزع لا أجد تفسيرا لهذا الجنون الذى أصاب الناس مرة واحدة.

ملأنى الخوف، فقدت القدرة على التذكر أو التمييز بين الشوارع، شلنى الرعب، هول يشبه يوم القيامة، وحدى بحجمى الضئيل أنتظر أن تنطبق السماء على الأرض، صوت الرعد ووميض البرق وصوت تحطم الزجاج المنهمر من البيوت على الإسفلت، وأنا تائه وحيد أرتعش من البرد، لا أعرف الطريق إلى بيتنا.

وكأننى فى حلم رأيت أبى على دراجتنا "الرالي" السوداء الكبيرة، وسط المطر والظلام يبحث عنى فى تلك الشوارع المجنونة.

قال أبى: وجدته فى أول حارة اليهود

بحث أبى فى الشوارع المؤدية إلى حارة اليهود، وبحث عمى فى الشوارع المؤدية إلى "القناة" حيث الكباريهات:

"ريتس" "سيسل" "اسبلندد" وغيرها، كانا يخافان على من "اليهود" و من جنود الاحتلال السكارى .

شهقت أمي وهي تضمنى إلى صدرها فى فزع: حارة اليهود ؟

وكأن هذا الرعب الذى واجهتُه - وحدى - فى حى "الإفرنج" شيء وما يمكن أن ألاقيه فى حارة اليهود شيء آخر.

قال عمى: إنه "الكريسماس"، فيه يسكرون وفى منتصف الليل يلقون بزجاجات الخمر إلى الشارع ابتهاجا بالعيد، ألم تجد سوى"الكريسماس" لتتوه فيه وأيضا فى "الإفرنج" ؟

سألته عن حارة اليهود قال أساطير يشيب لها الولدان قال: فى بعض أعيادهم يقفون على رأس الحارة، يخطفون أول من يرونه من أطفال المسلمين أوالمسيحيين يضعونه فى "شوال" ويذهبون به إلى المعبد، يضعونه فى كرة كبيرة من الحديد مبطن جوفها بمسامير وسكاكين مسنونة، يديرونها على محور تحته إناء فضي، وبعد وقت كاف لتصفية دم الطفل القبطى أو المسلم، يفتحون صنبورا فى أسفل الكرة فيمتلئ الإناء الفضى بالدم، يأخذه الحاخامات ساخنا، يعجنون به فطيرا يوزعونه على شعبهم فى صباح العيد.

ظللت لفترة طويلة أحلم بالكرة الحديدية المغلقة وسكاكين اليهود تمزق لحمي، وتصفى دمى.. ولازلت، ظللت لفترة طويلة لا أحب

حى "الإفرنج" ولا من يسكنون فيه.. ولازلت .

- لماذا أنت عنيد هكذا يا "محمد"

- أنت وعدتنى أن تبيعنى المحل

- نعم سأبيعك نصف المحل والنصف الأخر "لأنطونيو"

- لا يا خواجة "جورجي" لم يكن هذا اتفاقنا، خمس عشرة سنة وأنا أبنى هذا المحل، سنة وراء سنة وأنت تقول لى :

عندما يجيء اليوم الذى أترك فيه مصر هذا المحل لك

- صدقنى يا محمد (انت أسطى حلوانى كويس) لكن إدارة المحل شيء آخر، ولولا إصرار ابنى "ميشيل" على السفر ما تركت مصر.. ما الذى فعله بكم "جمال عبد الناصر"؟

هيلا ليصا هيلا*

قال أبوه: ابق معى وسأحضر لك حصانا من الشيكولاته

- سأذهب مع أمى

تلك المركب مملوكة لأحد أخواله، تنقل إلى البلدة الرمل الأصفر وأحجار البناء الحمراء، وبعض المسافرين.

"النسايمة" واحدة من تلك القرى المتناثرة على تخوم البحيرة، يسكنها صيادون وفلاحون، تنحدر أمه من سلالة الصيادين.

خرج أجدادى إلى البحر، داست أقدامهم، تلك الأرض الشاطئية المنعزلة، قبل أن يشاركهم فيها الوافدون من الأخلاط، والأجانب الغزاة.

يرفع خالى "الحلة" الكبيرة من النار، "يسمّي" ويغرف من الأرز الأحمر الدسم، دفن فيه ما قسم الله من أطايب البحيرة.

تقول أمى: لا يطبخ أحد "المدفونة" كما يطبخها "المراكبية"

يقول خالي: سمك يخرج من الماء إلى النار ما ذا تنتظرون أن يكون طعمه ؟

يقول المراكبى: الريح "مِنَسّم" وشك حلو يا "عربي"، يملأ الهواء القلوع، تنساب المركب برشاقة مائلة على جانبها الأيسر، صوت الارتطام على الجانب الأيمن المرتفع، ورشاش الماء المندهم يدغدغ الحواس، يرفض أن يبقى فى "الخن" أسفل السفينة، تسلمه أمه لأخيها يمرح على سطح المركب المحدب الخطر.

يركب ذراع الدفة الغليظ، يتعلق بالحبال، ينبطح على الخشب "المليلط" الذى حال لون دهانه القديم، يقبض الماء الذى يفر من يديه مخلفا تلك الكهرباء الساحرة فى أصابعه وروحه.

– حاسب عروسة البحر تسحبك من يدك وتغوص بك عند أهلها ولا تعود

يحب هذا الخال المراكبى.. عالم من الخيال، وإن شىءت الدقة، عالم من الواقع الرحب، معه تتعدى البحيرة مائيتها و"زبدها" و"غَلَتَها" و"حَشَفَها" وطينها ورملها وقواقعها وشواطئها وقمرها وريحها، تتحول إلى كائن حى، على نحو ما يتحدث ويتواصل، يكتمل بناسه وأسماكه وجنه وعفاريته ..

مع هذا الخال المراكبي، تعلمت لغة الكائنات.

لا يتذكر من "النسايمة" سوى بيت خاله المطل على البحيرة، أمامه مرسى كبير لمركبه الكبيرة، خلفه تمتد حقول الأرز المغمورة بالماء العذب يسبح بين شتلاته البعوض المتوحش، وتلك الشجرة على رأس "المدق" المؤدى إلى مساكن القرية الريفية، والذى ينفرع إلى "مدق" آخر صغير يؤدى إلى المقابر.

من فوق هذه الشجرة قفز "كمونة" إلى البحيرة مع الأطفال القافزين، سقط فى الماء "الدَرَاك" على رأسه "زرع بصل"، شج رأسه، كادت تنقصف رقبته ويموت، ضج أطفال القرية بالضحك على هذا "البورسعيدي" الغشيم الذى ضحكت عليه "الجنية".

تحت هذه الشجرة فى الغروب نلتف حول خالى، نستمع إليه وهو يحكى عن "الجنية" التى تسكنها.. تختار من الشباب الذاهبين إلى القرية بالليل أكثرهم فتوة وجمالا، تغريه بوسائلها التى لا تقاوم، يذهب معها إلى المقابر، تشرب دمه.. انظروا يمسك خالى بعود صلب، ينحت لحاء الشجرة فيسيل ما يشبه الدم.

يقول: إذا جف هذا الدم نعرف أن أجمل شباب القرية سيزور المقابر، وغالبا لا يعود، وإذا ما عاد يعود "مخاويا" "ممسوسا"، يهيم على وجهه فى شوارع القرية بالنهار، ويرجع إلى المقابر بالليل.

- لماذا يعود إلى المقابر يا خال؟

- أصبح "مجذوبا".. جذبته الجنية بجمالها

- أريد أن أصبح "مجذوبا" يا خال

يضحك الأطفال من هذا "البورسعيدى" الأحمق الذى يحسد المجاذيب على ذهاب عقلهم.

يقول خالى: فى موسم الفيضان تدب الحياة فى كل شىء، تهتز الأرض، تربو ويتفجر خيرها، حتى الماء فى البحيرة يكاد أن يصبح عذبا فراتا، يتقافز فيه السمك الغزير من كل نوع شبعانا دسما، نقبضه بأيدينا من الجحور التى صنعتها أقدامنا فى طين البحيرة الخصب، يختلط "المالح" "بالحلو" والأرض بالأرض والخير بالخير..

بيت خالى فى " مرج البحرين "

فى بورسعيد كثيرا ما أذهب فى الليل وحدى إلى "المردة"، عند المدخنة الطويلة، أنتظر "العون" الذى وصفه الخال.. لماذا لا يظهر ؟.. تسحبه الجنية من يده وتغوص به إلى القاع، عالم ملئ "بالدلافين" المقهقهة، وحوريات البحر، تلمع زعانفهن وذيولهن فى الضوء الأزرق والفضي، أصداف مذهبة وقواقع من نور..

يطأ سمكة بنية لزجة، حصان الشيكولاتة الذى احتضنه ونام تحول إلى فطيرة بنية لزجة، صوت أبيه وهو يحمله على يديه، يعلمه السباحة فى الماء الرائق المنعش: اسمع كلامى ابق معى أحسن لك

يقف الهواء تماما، المركب التى تمخر الماء جذلة مجلجلة أصابها

الشلل، فجأة تقف عاجزة كصخرة ميتة، انكفأ صدرها فى الماء مثل طائر قتيل، فقط الحر والرطوبة التى " تشر" عرقا من أجسامنا المختنقة. . ينزل الرجال إلى الأرض القريبة يجرونها باللبان.

هيلا ليصا

هيلا

هيلا ليصا

هيلا

صوتهم شجى وعميق.. وحزين

على رأس المركب، يقف الخال، طويل مثل "إله" فرعونى مهيب، فى يده "مدراة"، طويلة يتحسس بها القاع، الذى يحفظ تضاريسه تماما، يتخذ لمركبه طريقا آمنة، وسط تلك المياه الضحلة القريبة من الشاطئ، عضلاته التى تلمع فى ضوء القمر، أشد صلابة من "المدراة" التى فى يده

- الهمة يا رجالة

" هيلا ليصا

هيلا

هيلا ليصا

هيلا "

الوطن الجميل

شيء ساحر هذا الخط المزبد بين الماء الضحل واليابسة، يحيط بالمدينة، كقلادة من الأصداف البيضاء الناصعة، تتخللها بقع خضراء داكنة، "طحالب" بحرية تتحرك مع حركة المياة قدوما وإيابا.. خارج المدينة، الأرض بيضاء مشوبة بالاحمرار، بينها أخاديد من الطين الأسود المشقق من حرارة الشمس.

يقفز فوق جزر الملح الأبيض برشاقة الطائر البحرى .. البقعة التى تميل إلى الاحمرار فخ مميت، بركة ملحية لم يكتمل جفافها، ملح يغلي، قطعة من جهنم الحمراء.

يضع قدميه فى ماء البحيرة، إحساس بالنشوة والتعادل، ينسرب الماء بين خلاياه وروحه، تنفتح مسامه لهذا الخدر الكونى الأسر، يخرج غابة الصيد من المخبأ السري، ينتزع الديدان البحرية الملساء من كتلة الطين المبللة.

قال عمه: هذه الديدان تلحس الجلد، تمحو بصمات الأصابع

- ما فائدة بصمات الأصابع؟ .. السمك ألذ

يعرف نوع السمكة من رعشتها فى الماء، "القاروس" هذه السمكة الملكية تأكل بأطراف شفتيها، لا تشعر إلا وهى معلقة تتلوى بوقار وانسيابية، "الدينيس" و"الشبار" و "الوقار" "واللوت" أسماك فتاكة تهجم على الطعم فى افتراس، محدثة جلبة وصخبا شديدا، عند خروجها من الماء.

لا أحب أن أخرج للصيد مع "كمونة"، لا يصطاد "بالغاب والسنار" يفضل "التجحير" يسير فى الماء "الدراك" فى خط مستقيم محدثا خلفه عاصفة من العكار، الذى "يطفش" السمك من أمامي، ثم يعود لتلك "الجحور" التى صنعتها أقدامه فى الطين الحي، يقبض السمك منها بكفيه المجردتين، يضعه فى الصفيحة المعلقة فى رقبته بحبل رفيع، مرخى قليلا، حتى تظل طافية وقريبة من يده التى يصطاد بها.

يخرج "كمونة" من الماء وقد امتلأت "صفيحته" بالسمك، ينظر إلى فى شماتة ويقول: "ودنك منين ياجحا".

الصيد "بالغاب والسنار" متعة مكتملة، لا يعرفها إلا أصحابها، طقس معقد ومرتب، لا يصبر عليه إلا أهله، يبدأ بتجهيز الغابة فى المنزل ليلا، قبل الخروج إلى الصيد فى الفجر.

يختلف نوع الغابة وطولها، وكذلك طول الخيط وقطره، وحجم

"ثقل" الرصاص، وعوامة الفلين، بحسب مكان الصيد ونوع السمك غابة "الشبارالأخضر" قصيرة رفيعة، سواء أكانت من الغاب البلدى أومن إلغاب الرومى "اللبلاب"، خيطها رفيع قصير و"ثقلها" خفيف، وقريب من "وِش السنار"، "الشبارالأبيض" الكبير غابته أطول وخيطه أكبر "قطرا"، يوجد فى الأماكن العميقة من البحيرة، "الدنيس" فكه مسلح بأسنان قاطعة، أربط السنارة جيدا في"واير" رفيع من الصلب فى نهاية خيط البلاستيك.. قليل من يربطون السنارة بطريقة صحيحة، أعرف أكثر من طريقة لربطها، لا يعرفها إلا المحترفون.. يستسلم لهذا الخدر اللذيذ، وتلك "البطاحيش" تنقر جلد قدميه بمناقيرها الرقيقة، تلتقط العوالق البحرية الدقيقة، العالقة بشعر قدميه، يشعر أنه جزء من هذا العالم الرائع حقيقة لا مجازا، مع البحيرة يصبح جسده أكبر، وكذلك روحه.. مع الوقت اكتسب القدرة على رؤية ما لا يراه الناس بأبصارهم، يشعر باقتراب السمكة من "الطعم" قبل اهتزاز قطعة "الفلين"، لم يصدق فى البداية، تطورت حواسه واكتملت قدرته على الرؤيا، لم يعد فى حاجة لقطعة "الفلين".. يفرح لانصراف كمونة بصفيحته الصدئة، يخلع ملابسه، يضع فوقها الطاقية "الخوص" العريضة التى تشبه طواقى "المكسيكيين".. يلقى بنفسه فى هذا الحوض الخاص المقدس، الذى يمتد إلى آخر مرمى البصر، الجنة.. هى هذا الوطن الجميل.

الشاطئ الجنوبي

فى مكتبة المدرسة وضع الأستاذ أمامه كتابا ضخما وقال: اقرأ هؤلاء العباقرة الفرنسيون أتى بهم " نابليون "، مع مدافعه وبارودە، وصفوا المنطقة الساحلية الشمالية وصفا دقيقا، لم تفتهم فائتة، وصفوا الحقول الطينية الممتدة السوداء، التى شققتها الشمس، وحقول الملح البيضاء والحمراء، وتلك البرارى الطبيعية ونباتاتها نبتة نبتة، وصفوا الطيور المهاجرة من كل لون وصوب، وصفوا كل شىء، ومع ذلك بقى شيئ كبير فاتهم، شيئ لا تدركه الأبصار ولا العقول، شىء متصل بالقلوب والبصائر والأحوال، شىء كبير وجميل وغامض، شىء يشبه السر.. يشبه الروح،

تلك الأرض الحبيبة الماكرة لا تبوح بأسرارها إلا لأبنائها.

يحب هذا الشاطئ الجنوبي، هل هى الوحدة المطلقة مع الكون..

فلا بشر سوى هذا الماء الرقراق وهذه القلوع التى تبدو على البعد وكأنها تلك المراكب الورقية التى يطلقها فى الماء، ثم يتتبعها بعينيه إلى أن تغيب؟ أم لأنه يشعر بدقات قلب هذا الوطن الممتد خلف هذا الشط

لأكثر من ألف كيلومتر، كما يقول أستاذ الجغرافيا، وإلى آلاف السنين، كما يقول أستاذ التاريخ؟

صحيح، إنه لم يذهب لأبعد من تلك القرى القريبة والجزر المتناثرة في البحيرة: "ابن سلام"، يزوره في "مولده"بعض من أهل المدينة وبعض من أهل القرى القريبة، رجالا ونساء، يمارسون حول "مقامه" طقس الانطلاق.

"المراحات"التى يراها خالية تماما ويقول خاله: إنها تأوى "المطاريد"والهاربين من الحكومة.. عالم مكتمل بغابه وناسه وجنه وعفاريته، بدجاجه وخرافه وجواميسه.

"تنيس"المدينة الغارقة في الماء.. وفى الأساطير.

- تقول أمى إنك مجنون وستخبر أبى إن رأتنى معك.

- لماذا تأتى معى إذن؟

- أريد أن أرى الشاطئ الجنوبى.

- ضع قدمك فوق موضع أقدامى وكن على حذر

ينطلق الصديق صارخا، يجوس فى الأماكن الملحية المشتعلة، يجرى وراء صديقه، يحمله على كتفيه، تنغرس القدمان فى الجحيم، لا يستطيع القفز برشاقة الطائر البحري، تصعد ألسنة النار إلى رأسه، يكتم صرخة هائلة ترتد إلى فضائه الداخلى.

يغرس قدميه بشدة وينسي كل شيء، فقط يضع نظره فى الشاطئ الجنوبي، يقترب خطوة.. خطوتين.. أين هذا الألم الخرافى؟!

قدماه قطعتان من الخشب المدمى.

يجلس في الماء، ينظر إلى دمه النازف من قدميه اللتين، شرحتهما القواقع الطينية المملحة، يخرج الدم قانيا، ثم يختلط بالماء الرائق فيصبح ورديا، تتدرج خطوطه فى الخفة حتى تتلاشى.

صوت خاله المراكبى: ماء البحيرة ترياق يشفى كل الجروح.

قال صاحبه: إنها الأرض الملعونة، لن أمشى معك بعد اليوم، أخذته المفاجأة ورجّه الوصف، ثم اكتشف الحقيقة اللذيذة..

هذه الأرض الحبيبة الماكرة تختار من تمنحه سرها..

ملأه الإحساس بالفخر وبالمسئولية..

قالت الأم: اذهب واغتسل قبل أن يراك أبوك.

الضفة الأخرى

يطأ القواقع البيضاء على الشاطئ الرملى، يرتاح لصوت انفقاعها تحت حذائه الجلدى الخشن، يتتبع آثار الكابوريا البرية، فى خطوطها العنكبوتية المتقاطعة المنتهية دائما إلى فوهة حفرة رملية ناتئة، شبيهة بفوهة بركان صغير، نفس الخطوط التى تغزلها أمه على طرف الستائر قبل أن تعلقها فوق شبابيك البيت، لم يستطع أن يفهم ما تفعله هذه الإبرة الحديدية الكبيرة المعقوفة عند الرأس كمخلب صغير، كذلك لم يستطع أن يفهم لماذا يريد هؤلاء الناس قتلنا ؟

ينظر إلى الماء المنسحب تحت قدميه، بعد انكسار الموجة المخاتلة، يشعر بدوار من يركب "الساقية القلابة" وهى تنحدرلأسفل، هل الماء هو الذى يتحرك أم هى الأرض التى تميد؟

يطلق بصره إلى خط تلامس الماء مع السماء، هذا الفراغ المخيف الذى يفصل بيننا وبينهم، ما لهم وما لنا سكان هذه الضفة الأخرى؟

ليت هذا البحر لا ينتهى إلى أرض، ليته ماء بلا حدود، الخواجة

"جورجي" أتى من وراء هذا البحر، ومن ورائه أيضا هذه الخفافيش السوداء التى فى السماء.

طائرات صغيرة جدا على ارتفاع شاهق، يتتبع ذيل الطائرة الدخانى الأبيض الممتد مثل أفعى طويلة، ينقطع أحيانا ثم يعاود الاتصال، يبدأ من نقطة صغيرة لا تكاد تبين، رفيعا وحادا ومستقيما فى المقدمة، ثم يأخذ فى التعرج والانتشار.

يقول عمى: هذه مرحلة الاستطلاع والتصوير.. بعد ذلك يأتى القصف

لا أستطيع أن أستوعب ما يجرى، كلام غير مرتب وغامض ومخيف

- "الإنجليز" يريدون احتلالنا مرة أخرى
- "فرنسا" تريد استرداد القناة
- هل القناة فى "باريس" وسرقها منهم "عبد الناصر" ؟
- "اليهود" وراء كل مصيبة

قال خالى: المركب على أول الرصيف فى "المردة" القديمة، لا بد أن نبعد الأولاد عن الخطر، جهزوا حالكم، سأنقلكم إلى "النسايمة"

قالت أمى: "النسايمة" ليست بعيدة ورب هنا رب هناك

قال عمى: لن أسافر

قال أبى: نطمئن على الأولاد ثم نعود.. "النسايمة" مفتوحة على بر مصر و"بورسعيد" جزيرة محاصرة

قبضة أبيه القوية تعتصر معصمه الصغير، خرجنا من شاطئ البحر إلى شارع "الأمين"، وصلنا "المردة" القديمة، الناس فوق بعضها، المراكب ممتلئة عن آخرها، الطائرات تقصف البحيرة، بعض المراكب و"اللنشات" الصغيرة تنقلب بمن فيها، إنه يوم الحشر، الجثث تغطى الماء، معظم الضحايا من النساء والأطفال، فقد رجل أسرته كلها فى الماء، يحتضن رضيعا ميتا، جلس صامتا ينظر للماء فى ذهول.

يصيح الخال غاضبا: أخرتنا يا ولد أين كنت ؟

قال أبى: وجدته على شاطئ البحر

المركب مزدحمة، الماء قريب جدا من سطحها العلوي، وجوه كثيرة من العائلة، وأيضا ناس كثيرون لا أعرفهم، رغم امتلاء القلوع، تتحرك ببطء شديد.

أمام الطابية الغربية عند نقطة التقاء الشاطئ الجنوبى وصدر البحيرة الفسيح، يقفز العم إلى الماء سابحا فى اتجاه المدينة، وراءه يقفز الأب.

إنها "الجنية" التى سحبتنى إلى الماء، الذى بدا فى تلك اللحظة داكنا وعميقا.

من المركب يصيح الخال: اطمئن يا "محمد" الأولاد فى عينى الأرض بعيدة هذه المرة، لم يسبق له أن سبح مسافة بهذا الطول

- اقترب منى يابنى.. استرح قليلا.. ضع يدك فوق كتفى

- اطمئن يا أبى هذا الشاطئ بيتى وهذا الماء مائى

رغم غبشة المساء، يقفز على الشاطئ الملحى برشاقة الطائر البحرى، يقود الأب والعم، إلى المواضع الملحية الآمنة.

شارع كسرى

يقسم المدينة من المنتصف تقريبا، وهو شارع "طولي".. الشوارع "الطولية" تمتد متوازية مع شاطئ البحر، والشوارع "العرضية"، تتعامد بين شاطئ البحر وشاطئ البحيرة.

يمتد شارع "كسرى" فى خط مستقيم، يبدأ من "المناخ" غربا، وينتهى شرقا إلى "قبة" المبنى الإدارى "لهيئة قناة السويس البحرية "، التى أممها "جمال عبد الناصر" وتقع مباشرة على ماء القناة.

بداية شارع "كسرى" من تقاطع شارع "الأمين".. أول مرة يرى شارعا بلا ناس، قطعت عيناه شارع "كسرى" من أوله إلى آخره فى لحظة واحدة، تعجب كيف أصبح شارع "محمد علي" قريبا بهذا الشكل.

يفصل شارع "محمدعلي" بين شرق المدينة الثرى "الإفرنج" والذى ينتهى إلى القناة، وبين حى "العرب " الفقير الممتد غربا حتى حي"المناخ" الأكثر فقرا.

يبدأ شارع "محمد علي" من كوبرى "الهويس"، الذى يصل ماء القناة بماء البحيرة، حيث يبدأ طريق "المعاهدة" المفضى إلى "الإسماعيلية" والمحصور بين القناة وبحيرة المنزلة، يمتد شارع "محمد على" شمالا حتى يصل إلى البحر الأبيض المتوسط .

فى حصة الرسم قال للأستاذ: كيف أرسم شارعا ؟ الشارع كبير والورقة صغيرة

اللوحة الفائزة علقها الأستاذ فى الفصل، حيطان مصمتة لبيوت عالية فى الصدر، ثم يختنق الشارع حتى يشبه نفقا مظلما، عرف الآن.. الشوارع الخالية فقط هى التى تصلح للرسم، تستطيع أن ترسمها على ورقة صغيرة، وتستطيع أيضا أن تقطعها فى خطوتين.. عرف الآن لماذا لا يحب حصة الرسم.

سرنا فى الشارع الميت، وصلنا لتقاطع شارع "كسرى" مع شارع "بنى سويف".. يفتح الأب أبواب محله الجديد، تسلمه من هنا ولم تلبث أن قامت الحرب.. وسط الدخان والظلام يظهر عم "قلفوط" صاحب القهوة، معه عم "حلمي" الحلاق..

- كيف حال الناس فى "المطرية"؟

نظر أبى إلى عمى وقال: لم نسافر إلى "المطرية"

- والأولاد ؟

- سافروا مع خالهم

- كنا نظن أن معكم عيشا " فلاحي" وطعاما

- نحن لم نغادر المدينة كما ترى

يذهب عم "قلفوط" يحضر خبزا جافا وقطعة من الجبن وأكواب الشاى - الشباب طلعوا "الجميل"

- منذ الصباح والسيارات العسكرية توزع السلاح على الناس

- يضع العم كوب الشاى ويقوم

- إلى أين ؟

- إلى "الجميل"

- ليس معك سلاح

- سأتصرف

بلاعة عم السعيد

- الكهرباء مقطوعة.. "ضربوا" وابور النور"

- ضربوا أيضا محطة المياة

- من أين تشربون؟

- ما جمعناه من "تصافى" المواسير

حملت "آنية" كبيرة من المحل وخرجت، لن أنسى نظرتهم وأنا مقبل عليهم و"الآنية" على رأسى تترجرج، والماء يتساقط من شعرى وملابسى.

نتنافس يوميا أنا و"فهمى قلفوط" فى تنظيف شارع "كسرى"، أكنس أمام محلنا وهو يكنس أمام القهوة، ثم نحضر خراطيم المياه، ونظل نطفئ إسفلت الشارع الملتهب.

حينما تنقطع المياه ويأتى عم "قلفوط"، أظل أضحك وهو يجرى وراء ولده، يقذفه بكراسى القهوة ويقول: أنت "لعباتي" وكسول كان

يجب أن ترش الشارع قبل أن تنقطع المياه، انظر إلى "العربي" ولد ناصح ونشيط .

بدأت الحكاية صدفة، جوارنا تماما، على ناصية الشارعين، محل "محمد الجيار" البقال، أمامه على الرصيف يقف عم " السعيد " بائع "الطعمية"، لا يفتح إلا بالليل.

يتزاحم الناس. يتخاطفون "الطعمية" اللذيذة، المحشوة بالبصل البنى، والمكسوة بالسمسم الذهبي، يشترون أيضا الباذنجان المقلى المنقوع فى الخل والثوم والطماطم، يقف عم "السعيد" على غطاء "بلاعة" حديدى ومستطيل.

حينما وقع منى "الريال" الفضة، رأيته يتدحرج ويسقط داخل " البلاعة " تحت قدمى عم "السعيد"، لم أتكلم، أعطانى أبى "ريالا" آخر.. ظللت آكل الطعمية الشهية بلا شهية.

فى الصباح الباكر، قبل أن يفتح عم "محمد الجيار" دكانه، أزحت غطاء البلاعة الحديدي، مددت يدى فى الماء، الذى تفاجأت بأنه نظيف، أخرجت "ريالي" ومعه بعض "الفكة"، خمسات قروش فضية عشرات قروش عليها صورة الملك على رأسه الطربوش قطع مربعة من الفضة بقيمة قرشين ونصف وبقيمة قرشين وأخرى نحاسية بقيمة نصف القرش وقليل من "الريالات" الفضية و"الملاليم" النحاسية

وأنصاف الملاليم، كنز من العملة الصغيرة والمتوسطة، ظللت لفترة طويلة متجيرا هل أخبرعم "السعيد" ؟

أخيرا توصلت لقرار جرئ ومنطقى ومريح، على الأقل بالنسبة لى.. هذا رزق ساقه الله، وحرام أن "أرفص" النعمة بقدمى.. أو حتى بيدى، فعم "السعيد" رجل يخاف منه الأطفال، ولا يعطى "طعميته" اللذيذة إلا لمن يحمل نقودا، ولم أره فى يوم من الأيام يعطى أحدا شيئا بلا ثمن، لصغير أو لكبير، لغنى أو لفقير، كما إنه لايقف على "أملاك أبيه"، إنه واقف على رصيف عم "محمد الجيار" وفوق "بلاعة الحكومة".. هى نقود سقطت من أطفال خائبين، وربما ضرب بعضهم بسبب وقوعها "علقة" ساخنة، فليس كل الآباء مثل أبي، وليس كل بائعى "الطعمية" مثل عم "السعيد".

قال أبى: هذه مياه نظيفة تتسرب من "محبس" حنفية "المطافي" .. كانت المياه ساعتها مقطوعة عن البيوت

فى الأيام التى تنقطع فيها المياة كنت أتسحب إلى "البالوعة"، حتى لا يرانى ابن "القهوجي"، أرفع الغطاء الحديدي، أفتح المحبس قليلا، "أنزح" الماء وأرش الشارع، وعندما يأتى عم "قلفوط"، أظل أضحك وهو يجرى وراء ولده، يشتمه ويكسر على رأسه كراسى القهوة، "وفهمي" ينظر إلى بعينين يتطاير منهما الشرر.

صوت عم "قلفوط" وهو واقف على رأس "حنفية المطافي" ينظم الطابور: بالدور.. كل واحد سيأخذ نصيبه

"صوت عبد الناصر" فى الراديو: سنقاتل.. سنقاتل حتى آخر قطرة من دمائنا

ينظر أبى إلى.. يضع كفه الكبيرة فوق كتفى.. ما أرق هذه الكف الكبيرة.. القوية!

قطار الدلتا

يخرج الضفادع الميتة المنتفخة ويبكي، وضعها كمونة فى حوض الغسيل الكبير، المبنى من الطوب الأحمر، تحت حنفية المياه الضخمة، فى مدرسة "أجا" الابتدائية.

أقمنا فى مبنى المدرسة، يقتسم "الفصل" عائلتان، أخذ أبى فصلا كبيرًا، لنا ولعمتى وأولادها .

- لماذا يفعل ذلك يا أمى؟

- مسكين "كمونة" قلبه غير رحيم

بامر الحكومة تتجه اللنشات والمراكب إلى المطرية، ومنها يتم توزيع المهاجرين على كافة محافظات مصر .

استقبلنا الفلاحون أولا بالطعام والعطف، يتسابقون فى إكرامنا وإنزالنا من السيارات الضخمة التى أتت بنا من المطرية.

مع الوقت لم نعد ضيوفا صرنا "مهاجرين"، كلمة جديدة فى قاموس الشعب المصرى، ذكرتنا بكلمة "لاجئين" التى نسمعها

فتثيرفى نفوسنا الشفقة على إخواننا الفلسطينيين، آه من هذه الشفقة القاسية.

ظل الفلاحون ينظرون إلينا باندهاش وحذر، عاداتنا لها طعم البحر كما إننا لم نتقبل بسهولة، هذه الحياة الريفية التى تنام من المغرب.

جاءنا أبى مصابا بشلل فى وجهه، يغطيه "بتلفيعة" كبيرة حتى لا نرى فمه المشدود جهة اليسار قال الطبيب: لفحة برد شديدة.. علاج بسيط ويشفى إن شاء الله

يفرش أبى فرشته على البلاط، وينام بجوار باب الفصل حتى يحرس الجميع، فى "بورسعيد" ينام على سرير ضخم بأربعة عمدان حديدية، ومراتب تحرص أمى أن تضعها فى الشمس كل صباح، خرجنا من " الدار للنار ".. كان يجب أن نبقى فى بورسعيد .

أصبح عمى عصبيًا، كثرت احتكاكاته بشباب الفلاحين، نذهب يوميا أنا وهو إلى "المنصورة"، لعمل جلسات الكهرباء على وجه أبي، لم أفهم كيف تشفى الكهرباء الوجه المشلول، نركب قطار"الدلتا" الصغير البطيء الذى يشبه اللعبة، يتهادى وسط الحقول الخضراء وعلى كوبرى "أجا" الرفيع الذى رأيت المياه وقد جفت تحته، والفلاحون يقبضون الأسماك الحية من الطين "الرائب" بأيديهم، ورأيتهم يتنقلون

بين الضفتين البعيدتين على أرجلهم، خائضين فى الطين الأسود، تعجبت يومها، كيف أصبح الكوبرى بعيدا جدا ومرتفعا، رأيت أيضا الماء البنى يتدفق فى دوامات عكرة، مسرعا ومحتدما، وله هدير يشبه هدير بحرنا فى يوم هائج.

أسير على حافة النهر، أتعلق بهذه الأشجار التى ترسل أحبالها إلى الماء، أقذف ثمارها التى تشبه قرون الخروب الكبيرة، لم تعد هناك قرون فى متناول الشاطئ، القرون الكبيرة وحدها بعيدة ومتحدية، أضربها فتسقط فى الماء المندفع الغاضب، أتتبعها إلى أن تقترب من الشاطئ، أحاول انتشالها بأطراف أصابعي، أنجح قليلا وأفشل كثيرا، أجد عمى جالسا تحت شجرة، ينظر إلى الماء وهو شارد، يرسم "الضامة" فى الأرض الرملية المنبسطة، يعلمنى كما كان يفعل على رمل "بورسعيد" الناعم، يراقب عن بعد بناتنا عصرا، وهن متجمعات تحت الأشجار، قريبا من الماء ومن باب المدرسة، يحكى لى أخبار بورسعيد، كيف اختطف الفدائيون "مورهاوس" وكيف فجر "عسران" "ويليامز".

فى الليل أرى نفسى راكبا دراجتنا "الرالي" السوداء الكبيرة، مستدرجا "مورهاوس" إلى كمين الفدائيين.. ليتنا لم نهاجر.

أحمل فانوسا صغيرا، أخرج إلى الحقل القريب أريد الهواء، مزق البعوض جلدي، ليل الريف أسود وثقيل، الأرض نائمة، الأشجار

نائمة، لا يصحو فى ليل الريف سوى الضفادع المسكينة، وهذا البعوض المتوحش، سماء الريف مظلمة ليس فيها نجوم ولا قمر.

تحتبس الصرخة فى حلقه قليلا قبل أن تخرج منشرخة مثل سهم أفلت وتره..

- لماذا عيون الكلاب هنا مخيفة ياأمى؟

- حمدا لله على سلامتك.. إنه ذئب

- ذئب!.. لماذا خلق الله هذه المخلوقات المتوحشة فى صورة الكلاب؟

عش الدبابير

عجيبة ذاكرة الأطفال، أتذكر حادثتين كأنهما حدثتا بالأمس فقط، "الأولى": عندما حاولت أن أمسك القرن الكبير، قبل أن ينفلت إلى المنطقة التى لا أطوله بعدها، زلقت قدمى بكومة القش الذى وقفت عليه، كاد الماء الهادر أن يأخذنى فى دواماته الغاضبة، وأنا متشبث بالطين، أنزلق قطعة فقطعة، أنفلت إصبعا فإصبعا، لولا أن ساقت الأقدار عمى.. أنا مدين بحياتى لهذا العم الجميل، الفارع الطول، بجسمه الهرقلي، وعينيه الواسعتين، وحاجبيه المرفوعين إلى أعلى فى اندهاش واعتزاز وثقة، وأنفه الصغير الحاد، كرأس حربة من الذهب، وحيائه واحمرار وجهه إذا أطالت الفتيات النظر إليه، كل فتيات القرية يطلن النظر إليه، كل شباب القرية يتحرشون به، ومنهم من يعلم حياءه ومروءته.

" الثانية ": لا أتذكر ما الذى أصابنى بالجنون فتسلقت مواسير المدرسة، حتى اقتربت من سطوحها، وضعت يدى فى عش للدبابير

فى أعلاها، تلسعنى الدبابير وأنا اهبط مسرعا، لو تركت يدى لسقطت ميتا لا محالة، عند منتصف المسافة تقريبا أسقط، بقيت فترة طويلة على الأرض لا أقدر على الحركة حتى أتى من رآني، ظن الجميع أننى هالك.

أفيق من الحمى أجد الحارس العجوز على رأسي، نزع أطراف الدبابير العالقة بجسمي، غطى الجروح بالطين وانتظر،

قال: هذا هو العلاج الوحيد

يتعجب لكثرة الإبر العالقة بلحمي، الوحيد الذى عرف السبب هوعمي، أخبرته عندما جاء ولم يخبر أحدا.

إلى المنصورة أذهب مع أبى وحدى، فى الأيام التى يختفى فيها عمى ثم يعود مغبرا وهزيلا.

- أين كنت؟

- فى بورسعيد

- كيف دخلت .. وكيف خرجت؟

- ربنا سلم

قالت أمى لأبى: امنعه يارجل.. سيموت

قال أبى: دعيه فى حاله.. سيموت إن بقى هنا

كانا يعرفان أنه يرافق الفدائيين، فى دخولهم وخروجهم من المدينة.

فى الأيام القليلة التى يقضيها عمى فى "أجا"، أستيقظ معه فى

الفجر، نجرى سويا بمحاذاة الطريق عدة كيلو مترات..

يقول: الجرى فى الصباح قوة للروح والجسم وإطالة للنفس

أعود وفى قلبى وعقلى أحاديث عمى .. أعود دائما وفى جيبى، حبات خضراء طازجة مما تنتج الأرض، ألتقطها من الطريق، يبدو أنها تسقط من أحمال الفلاحين عند النقل.. هذه " بشاير" أنت مرزوق يابنى وطريقك أخضر، يقول حارس المدرسة العجوز وأنا أدفع إليه ببعض ما أجد .. يتأمله فى سعادة قبل أن يمسحه فى ثوبه ويضعه فى فمه قليل الأسنان .

قلت: أريد أن أركب حمارا

فى اليوم التالى أتى بحمار، وضعنى فوقه وتركنى.. بعد أن انفلت الزمام وانطلق الحمار، يفتح العجوز فمه قليل الأسنان ويضحك، حتى ابتل شاربه بالدموع، وأنا أصرخ والحمار يقفز فى الأرض الزراعية، عابرا هذه الجذوع فوق مجارى المياة، وجائسا فى الأرض المخططة، حتى وصل إلى بيت أهله.

وأنا عائد مع عمى والعجوز، رأيت " الساقية " فى دورانها البطىء، أسمع صوت احتكاك الخشب العجوز الثقيل الذى يشبه الأنين، أتأمل الحيوان الصابر وهو يدور ويدور ويدور.

- لماذا تحجبون عينيه؟ .. حرام عليكم

يقول العجوز: الأرض غالية يابنى.. ربنا يرجعكم لأرضكم بالسلامة

عجبا، أليست مصر كلها أرضنا ؟

لماذا إذن نشتاق لتلك الأرض المالحة المشققة كل هذا الشوق؟

سالمة يا سلامة

طابور السيارات العائد المبتهج يغنى:

مع السلامة يا مهاجرين قاسيتوا ياما م الفلاحين

غنينا أيضا:

سالمة يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة

تبلل الدموع شارب الحارس العجوز، شباب الفلاحين يتناوبون احتضان عمى لحظة الوداع، العواطف صادقة، والدموع حقيقية.

على دراجتنا الرالى السوداء الكبيرة يطوف بى أبى شوارع المدينة الخراب فى كل مكان، رائحة الحريق لا تزال عالقة فى الهواء، أنقاض تسلم إلى أنقاض، لا أثر لحى المناخ، أكلت النار البيوت الخشبية الفقيرة، شارع "عبادي" تهدم كله تحت قصف القنابل، "كبائن" الشاطئ الخشبية، لم يبق منها سوى هذه القوائم المحترقة المتشبثة بالأرض، فى حى "الإفرنج" صور "ناصر" على كل الأعمدة، (dawin eden) بخط كبير على أرضية الشوارع، قاعدة تمثال "ديليسيبس" خالية.. رفعوا

العلم البريطانى فى يد التمثال المبسوطة، نسفه الفدائيون، كان لا بد من قطع تلك اليد الإستعمارية.

رغم الشحم الذى وضعه الإنجليز عليها، نجح "الروبي" فى تسلق السارية المرتفعة، أنزل العلم البريطانى، أحرقه فى شحمه وسط هتاف الجماهير، هنا وقف "جمال عبد الناصر" قبل العلم المصرى قبل أن يرفعه على نفس السارية عاليا، حرا وخفاقا، هنا فجر "عسران" "ويليامز"، فى هذا البيت، أمام معسكر الإنجليز، خبأ الفدائيون "مورهاوس".. دفنوه فى بئر السلم تحت بصر الأعداء وسمعهم.

وغنى "الصحبجية":

مورهاوس ليه بس إجيت
من لندن كده واتعديت
وبتظلم آه ولا خليت
وأهى موتك جت جوه البيت
مورهاوس ليه بس إجيت

– وضعنا أنفهم فى التراب يا بنى
– لماذا يكرهنا الإنجليز يا أبى ؟
– من نارهم .. ظنوا أنهم يستعبدوننا إلى الأبد
– لا أريد أن نهاجر مرة أخرى يا أبى

ثمن الحرية

فوق سطوح، بيتنا برج الحمام محترق ومهدم..

قال الجيران لأبى: قلنا لأخيك اذبح الحمام حتى لاتحترق المنطقة، نرى الحمامة قادمة والنار ممسكة بها، تهبط إلى "البرج" مثل قذيفة مشتعلة، كنا نقبض على الواحدة بصعوبة شديدة،

العجيب أن عمى لم يأكل من حمامنا طيلة الحرب

قال: كان يفزع من الناس ولا يأمن إلا لى وحدى.. صدقونى لم أستطع.. وكنت أصدقه.

ولدت فى الشهر الذى ولد فيه الملك " فاروق"، قبل عام من نكبة " فلسطين" قالوا: ماذا تريد أن تكون ؟

قلت: أريد أن أصبح ملكا

وجاء "جمال عبد الناصر".. خلع الملك وجعل كل المصريين ملوكا، ارفع رأسك يا أخى، إلغاء الألقاب، إلغاء الامتيازات الأجنبية، القضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال، الوطن للجميع.. لا بد أن أفرح

بالثورة، أنا الفقير ابن الفقير، رأيت بعينى مافعله الخواجة "جورجي" بأبي، وسمعت قصص الإقطاع مع الفلاحين، وقصص جنود الإحتلال - السكارى- فى منطقة القناة، وشاهدت جنودهم - غير السكارى- يقتلون أهل بلدى العزل تحت الأ نقا ض، يحرقون الأرض، والبيوت، والحمام، ويغرقون النساء والأطفال بلا رحمة فى بحيرة المنزلة.. غنيت مع الكبار فى " الضمة ":

ولا عادش باشا ولا عاد بيه
واللى عملها راحت عليه
إيدن وبن جوريون ومو ليه
جايين يحاربونا على إيه
هو الكنال ده فى أراضيهم
والا احنا خدناه منيهم
دى قنبلة وضربت فيهم
واللى ضربها رئيسنا جمال
مبروك يا جمال

دفعنا ثمن الحرية، فحقت لنا الفرحة بها.. أنا الفقير ابن الفقير، أصبحت مالكا لوطن رائع.. أرضه ومائه وسمائه.

بين موت الحياة.. وحياة الموت

فى موسم "السمّان"، كثيرا ما أعود إلى البيت وفى يدى "سمّانة"، أجدها دائما قريبة من يدي، لو أن الحارس العجوز هنا ليأكل من "سمّاننا" اللذيذ!

أذهب إلى المدرسة مبكرا، تسقط "المُلّيحة" مجهدة أمامي، بأقدامها الطويلة ورأسها الصغير الذى يشبه رأس "الدجاجة"

- خنقت نفسها يا عمى.. مدت أصابعها الطويلة، قبضت على الرقبة واستسلمت فى سكون

- الحرية.. أثمن ما فى الوجود

علمنى عمى كيف أريح الطير بالسلاح، أو بالريش، أنزع ريشة جافة من الجناح، أرشقها فى الرقبة تحت العرقين الصاعدين إلى الرأس، وأجذب مرة واحدة فيندفق الدم الساخن..

قال: عندما يشيخ "النسر" ويضعف، يعلو بآخر جهده فى السماء، ثم يضم جناحيه، ويهوى إلى الأرض كالحجر .. لسنا

وحدنا من نملك القدرة على الاختيار، بين موت الحياة .. وحياة الموت.

لم أصوب نحو "هدهد" فى حياتى..

قال زوج عمتى: كان ملكا قبل أن يغتر، ويحوله الله إلى هيئة الطير .. أنظر إليه وهو يحرك رأسه المتوج فى كل الاتجاهات، يخبط الهواء بجناحيه الكبيرين.. خبطتين سريعتين، ثم يطير قريبا من الأرض لمسافة قصيرة، قبل أن يقف فجأة محدثا ما يشبه الفرملة..

ما زال الغرور فى دمه .

يقبض على البطة من رقبتها، يطوحها على ظهره، يصعد السلالم فى خيلاء، ثم يضعها أمام الباب فى زهو المنتصر، رافعا ذيله مثل راية، لايفرق بين "بطنا" وبط الجيران..

قالت الأم: إما أنت أو الكلب فى البيت

لسبب لا أتذكره أمسكت أمى بالعصا، حاصرتنى فى زاوية الحجرة، وقف الكلب بينى وبينها متحفزا ومزمجرا ..

كلب بلدى أصفر اللون، فيه بقع بيضاء فى آخر الذيل، وعلى إحدى أذنيه وفى الصدر، يقاتل بشراسة، أصبح مشهورا فى المنطقة.. ازداد أطفال الشارع احتراما وابتعادا.

المنطقة الجافة من البحيرة، القريبة من البلدة، مقسمة إلى أحواض واسعة..

مستندا إلى ردم ممتد فى خط مستقيم، يتقاطع مع خط الأفق، يضع قبعته الخوص العريضة فوق وجهه، ينظر من تحتها، إلى كلبه الذى يتقافز حوله فى توتر قلق، يلعق وجهه ثم قدميه، ثم ينصرف إلى مطاردة خنفساء سوداء كبيرة، هبطت الشمس وهو مستغرق فى التفكير، إلى أين يذهب بهذا الكلب ؟ الذى جلس منتصبا مثل أسد، وناظرا فى عينيه متحفزا، منتظرا أول بادرة، حتى يبدأ اللعب والمصارعة.. ينصرف مرة أخرى إلى الجرى المنفرد، والدوران السريع والانقضاض الوهمى، بعد أن يئس من مشاركة صاحبه، إلى أين يذهب؟ وقد قالت أمه العنيدة: إما أنت أو الكلب فى البيت..

أفاق على ضوء "الفانوس"، صوت أبيه مختلطا بأصوات أخرى يعرفها: هات الولد.. أين الكلب؟..أين الكلب؟ الأمر لله وحده.

كلب أسود غريب وشرس، أجذب كلبى بعنف، أضربه بعصبية زائدة، أمنعه من المواجهة، أذهب إلى شاطئ البحيرة الجنوبي، لم أعد أنام جيدا، كوابيس مرعبة وإحساس بالمهانة.

لم يستجب لندائى هذه المرة، هجم بسرعة خاطفة على الكلب الدخيل.. غبار مثار وأصوات وحشية وقتال حتى الموت، ألقيت بجسمى بين الوحشين، أنقذت كلبى من هلاك أكيد..

هل أنقذته فعلا ؟

لم يعد ينظر فى عينى.. كثر شروده.. قل طعامه..

أصبح مغلقا بالحزن.

قال أبى: القوة فى القلب.. أنت كسرت قلبه.. كان يجب أن تتركه يكمل اختياره

يحاول أبى أن يخفى دمعه، وأنا أسوى التراب على صديقي،

لماذا تحجرت الدموع فى عينى؟

- ابك يا ولدى.. ابك

جاء البكاء متأخرا.. جاء طوفانا من الدمع.. والندم.

كَمّونَة

ماتت أمه وهى تلده، تركه أبوه، أوشك على الموت لولا أن تفجر اللبن فى صدر العجوز.

عندما تغضب منه تقول: أصلك يرد عليك يا " فرهود"

تقول أمى: " فرهود" عرق يهودى فى أصله..

لما حضره الموت قال الناس: اسلم يا "فرهود".. اسلم يا "فرهود"..

مات ولم يسلم.. كان عنيدا مثل "بغل"

يقول عمى: "كمونة" ذئب

يتمدد بجوار الخيمة على شاطئ البحر، ينتظر حتى تهلكنى السباحة فيقوم لمصارعتي، أكبر منى بعامين، يبتهج عمى عندما يفشل "كمونة" فى أن يصرعنى، ظل يحدق فى الشمس حتى أكلت عينيه، لم تفلح جدتى فى منعه، بعد أن كبر وفهم، دأب على إغواء الأطفال إلى النظر فى قرص الشمس، يومها ضربنى أبى وقال لأمي: قريبك يريد أن يعمى الولد، امنعيه من القدوم إلى البيت، لم تمنعه أمي، ولو شاء أبى منْعَهُ، لَمَنَعَهُ.. كانا يخافان إيذاء اليتيم.. وغضب العجوز.

الكنال الداخلي

كان الوقت صيفا، خلع "كمونة" ملابسه، وانتظم فى طابور الأطفال القافزين إلى الماء، يتقاطرون فوق " الأزأ "، ذى العوارض الخشبية المهترئة، والقوائم الحديدية التى أكلها الصدأ.

علمتنى هذه التجربة الاحتراس، وعدم الانقياد الأعمى.. وجدت نفسى فى طابور الأطفال، أفقت على حافة المرسى، فى مواجهة الماء البشع، لامجال للتراجع، دفعنى الذى خلفى إلى الماء المظلم القذر.. أية شياطين بحرية تتقاذفني، مسوخ سوداء، عيون مظلمة شوهاء.. امتلأ جوفى بالماء والطين والمازوت، وصلت إلى القاع، وسط أكداس من المخلفات البحرية والنفايات، أحبال، علب صفيح، وهياكل معدنية، مثل "كلابيب" العفاريت، امتلأت مثل زجاجة غارقة.. أوشكت على السكون الأخير، لولا أن اصطدمت بقائم المرسى الحديدي، احتضنته مستميتا إلى أعلى، لم يعد فى جسدى موضع إلا ومزقه "الحشف"

البحرى والحديد الصدئ . .

- ما الذى تفعله بنفسك يا بنى تريد أن تموت؟

- سامحنى يا أبى لن أفعل ذلك مرة أخرى

جلس الرجل القرفصاء على رصيف المقهى فى شارع الروضة، ممزق الملابس فى الشتاء . .

قال الناس : كان رجلا محترما له بيت وتجارة وأتاه "لطف" ، مات ولده فى "الكنال" الداخلى

يحرك يديه فى الهواء، يقفز الفزع من عينيه الواسعتين العميقتين - صدقونى رأيت "العفريت" فى قاع "الكنال" الداخلى، يأكل الأسماك و"العيال" . . صدقونى : "الكنال" الداخلى مسكون بالعفاريت .

يمد يده للرجل بالرغيف "الفينو"، المحشو بالجبن الرومى والزيتون الأخضر : أصدقك - والله العظيم - أنا أصدقك .

يختلف الماء فى "القنال الداخلي" عن ماء البحر، وأيضا عن ماء البحيرة، فهو إصبع مائى يمتد فى جوف المدينة من جهة الجنوب، تكتمل به دائرة الماء حولها .

قمت بتصميم "عِدّة" تشبه عدة صيد "الخُلُول"، إلا أن يدها أكثر طولا، حتى أصل إلى "البَكْلَوِيز" الأسود والأحمر الكبير، من قاعه المنحدرة إلى العمق، عند نقطة التقائه بماء البحيرة، من جهة "الهويس"

غربا، وبماء " قناة السويس" المتسلل إليه من تحت كوبرى "الرسوة" شرقا.. كثيرا ما وقفت على هذا الكوبرى، وقت "المد" أو "الجزر"، أرمى خيطى الممتلئ بالسنانير الخالية من الطُعْم، أربط فى نهايته " ثَقَل " الرصاص.. أجذب فجأة وبعكس اتجاه الماء، تعلق السمكة من الرأس وأحيانا من البطن أو الذيل.

وجدت فيه "صَدَفَات" نادرة جميلة، لم أر لها شبيها، لا فى البحر، ولا فى البحيرة، ربما كانت بقايا لمخلوقات بحرية لذيذة منقرضة، أكلها أطفال محظوظون فى أزمنة سابقة.

ينتهى القنال الداخلى متعامدا مع شارع "مائة"، ولو انتهى إلى البحر، لكان امتداده الطبيعى شارع "الروضة" (سوق السمك).

ماؤه شبه راكد، لوثته مخلفات السفن الصغيرة، واللنشات التى تعمل بالمازوت، والمتراصة على حافته الغربية فى تراخ وكسل، وسط "مناشير" ضخمة، يستخدمها نجارو سفن، تبدو قبل أن يكتمل بناؤها، مثل هياكل عظمية " لديناصورات" أسطورية.

يزداد التلوث كلما اقتربنا من "الأزأ" الخشبى، على شارع "مائة" جهة الشمال.

من جهة الشرق، تحده أرض "الجولف".. تفصل بينه وبين "قناة السويس".. فيها معسكرات الإنجليز، قبل أن يطردهم "جمال عبد

الناصر"، ومصنع " بروك بوند " لتعبئة الشاي، أممه أيضا "جمال عبد الناصر" - عمل فيه أبى ملاحظا للتعبئة والتجهيزات بعد أن أغلق محل الحلويات فى شارع "كسرى" -، كذلك نادى "المريخ" الرياضى، مصنع تجفيف البصل، ورش، عنابر ضخمة للتخزين، وسجن بورسعيد..

من جهة الغرب تحده.. عزبة "فاروق" .

عزبة فاروق

مساكن خشبية فقيرة، أذهب إليها لشراء الرصاص الحى، الذى ملأ المدينة بعد الحرب، فقد أطفال أطرافهم وأحيانا حياتهم ومع ذلك أذهب إلى العزبة، أضرب الرصاصة من المنتصف، تحت رأس "المقذوف" قليلا.. أفصل "المقذوف" عن "المظروف"، شىء يشبه تفكيك الألغام، لحظات حرجة أدمنتها.. أشعر أنى أسير على الحافة - وحدى - فى مواجهة الموت، مزيج من الجنون والشجاعة والمهارة، والمقامرة، والخوف والتهور، والتوتر اللذيذ .. أفرغ البارود فى كيس ورقى أضعه فى جيبى - فله استخدامات أخرى أكثر جنونا - أضرب الكبسولة "الفشنك" بالمسمار، فتحدث الفرقعة والانتشاء .

أشترك مع "السمكري" فى تصميم المقذوفات، دبابات، صواريخ، طائرات.. لم يعلم أبى أننى وصلت إلى أعماق عزبة "فاروق"، حيث عزبة "النحّاس"، وهى أعشاش من الصفيح لا يكاد يستر شيئا، يتحول سقفها فى الشتاء إلى "دش" بارد، والطين حولها بحيرات متصلة لها رائحة المجارى .

كان لأبى بيت على شارع "مائة".. آخر حى "العرب" الفقير، وبداية حى "العِزَب" البائس، اشتراه بثمانين جنيها، أجّره للغرباء من "الصعايدة" الوافدين.

قال للبائع: ثمانون جنيها مبلغ كبير، لقد اشتريت بيتا فى شارع "كسرى" بمائتى جنيه.

قال البائع: جنيه ونصف فى الشهر مبلغ لا بأس به

كنا نسكن وقتها بيت "الأمين".. قبض أبى شهرا، فى الشهر التالى لم يجد المستأجر، وجد المنزل مكدسا بعدد كبير من الصعايده، وقد رفضوا دفع الإيجار.

رأيت أبى يَدُسّ "مَقْطَع السَمْنِيّة" تحت حزامه، ويأخذ معه "جالون الجاز".

قالت أمى: اذهب يا ولد ناد على عمك

لم أذهب، تبعت أبى وهو يختصر المسافة من آخر شارع "الأمين" إلى عزبة "فاروق"، مخترقا عزبة "النحّاس"، و"زرابي" البصل وقطعان الماعز والخراف.. لم تكن مساكن "ناصر" قد بنيت بعد فى هذا الفراغ، الذى يفصل "العزبة" عن شارع "الأمين".

قال للصعايدة: ستخرجون وإلا أحرقت البيت عليكم

أفزعهم التصميم فى عينيه، لملموا "خلجاتهم" وخرجوا مسرعين،

يتعثرون فى بعضهم، وسط ضحك الجيران..

قال الناس: هذه بيوت للسكن يا عم وليست للإيجار

قال أبى وفى عينيه لمعة الانتصار: إنه بيتى كيف يجرؤون؟

قالت أمى وهى تنظر لأبى فى حب: ألم تخف وأنت وحدك؟

قال أبى فى تواضع: صاحب الحق قوى يا "أم العربي"

أحضر أبى الجير، كنت سعيدا وأنا أساعده فى دهان البيت، بعد الدهان، أعلق الأحبال فى مراين السقف، و"أتمرجح" أنا وأختي، و"نتنطط" على السطوح، ولم يقل أبى شيئا..

لم أحزن لما باع البيت، فقد رأيته راضيا.

الحرقة.. والغرقة

يقول الكبار: ستنتهى بورسعيد إما "بحرقة" أو "بغرقة"..

يقصدون بالحرقة "حرقة" شديدة شاملة، صاعقة وعاصفة، تصبح المدينة بعدها أثرا بعد عين..

ويقصدون "بالغرقة" أن يبتلعها البحر فجأة، بحجرها وناسها فلايبقى منها من أثر..

شىء شبيه بأسطورة "أتلانتس" فى التراث الإنساني، وبأسطورة " تنيس " فى تراث المنطقة.

منذ مئات السنين حدث زلزال مهول، أهاج البحر هياجا شديدا، فاقتحم اليابسه بطوفان هائل، أهلك الزرع والنسل، وأغرق المدن والقرى، طمر كل شىء ثم عاد إلى مربضه فى الشمال، مخلفا وراءه تلك البحيرة الرائعة، وتلك الشطوط الأسطورية.

إنها جدلية الحياة والموت تتجلى فى أوضح صورها، وسبحان مخرج الحى من الميت، ومخرج الميت من الحي، وجاعل الماء أصل كل حى..

كان لا بد أن يصدق هذه "الأسطورة اللعنة" أجدادنا الأقربون، ممن حفروا القناة سخرة.. فلا أجداد لنا سوى هؤلاء الضحايا المساكين.

حينما احترق المناخ فى المرة الأولى - قبل الحرب - ظن الناس أنها " الحرقة "، ولم يصدقوا، إلا وهم مكدسون فى الساحة الشعبية، فى خيام أقامتها الحكومة على النجيل الأخضر..

يومها قال له "كمونة": تعال.. سأطلعك على شىء جميل

رأى من فرجة الباب الكبير غير المحكم، الفتيات الناضجات يستحممن جماعة، تحت "الأدشاش" المتجاورة المخصصة للرياضيين، رأى لأول مرة فى حياته هذه المنطقة المعشبة أعلى الساقين، والنهود الرجراجة البكر تهتز فى صخب التزاحم، تعجب يومها لوجه كمونة المحتقن، مرت الأيام واحتقن وجهه، كلما تذكر هذا المشهد التاريخي، وكلما زار الساحة الشعبية، اتجه بصره إلى ساحة الاستحمام الكبيرة بأدشاشها المتجاورة، يستنشق عبق الأيام الخضراء.

لم أعد أصدق حكاية "الحرقة" هذه، فقد اعتدنا الحريق مع تكرار الحروب، أما مسألة "الغرقة" فالأمر مختلف، فهذا الوحش الجاثم تحت أقدام المدينة من جهة الشمال، يملأ العين والقلب بالفزع، كثيرا ما يهجم على المدينة، محتشدا وهادرا، يكسر الجسور، يخلع الأبواب، يخمشها بأظافره وفمه المرعب المفتوح ذى الأنياب، رأيت

غدره كثيرا، وما زال يفاجئني، ولا زلت أرهبه.

نخرج للصيد شتاء فى الصباح، نراه هادئا كطفل نائم وديع، وفى لحظة واحدة ينقض على الأرض، يقضمها تحت أقدامنا، يعدو خلفنا نحو الجسور والأرض المرتفعة، يزمجر فى توحش وإصرار قبل أن يعود إلى مربضه فى الشمال، مخلفا وراءه أمواها كثيرة، تغمر الأرض الساحلية المنبسطة أمامه، مكونة بركا ومستنقعات شاسعة وممتدة حتى لتكاد تصله بالبحيرة، ليست أسطورة حكاية الغرقة، فالبحر وحش حي، نلمس أنيابه وأظافره.

أرى الماء فى أحلامى، يرتفع من طابق إلى طابق، حتى يصل إلى سطوح بيتنا، أعيش لحظة ابن " نوح " وقد حاصره الماء من جميع الجهات.. أنسى دائما تجهيز " الطوف " الذى يحملنى أنا وأهلى وجارتى الصغيرة الجميلة.

كابوريا

خلف مطار "الجميل" وعلى ارتفاع نصف متر، يصطدم ماء البحيرة بالسور .. يقفز على الأحجار الصفراء المدببة، يفكر فى التراجع، تحت تأثير الألم والإجهاد.

قال كمونة: سأسير مع الناس على الجسر "امش سنة ولا تخط قنا"

لو استمر امتداد الصخر بهذا الشكل فهو هالك، فلن يستطيع الاستمرار أو العودة، بجانب هذا الإحساس بالخوف وترقب المفاجأة.. إحساس من يسير فى ماء لا يعرفه، ربما وقع فى حفرة مما خلفته الحرب، أو يعلق "بمتراس" قديم أكله الصدأ، ربما وطأ "لغما"، ساعتها سيقولون: ما الذى أصابه حتى يسير فى هذا المكان المقطوع؟

الماء ساخن فى هذه المنطقة، وشبه راكد..

الحمد لله، انتهى أخيرا الحاجز الصخري، أخيرا لامست قدمه الرمل الدافئ الطري، آلاف من " الكابوريا " منزوعة الدروع، ملتصقة

فوق بعضها، اثنتان اثنتان فى سكينة الخلق الأول.. لا تذهبن بك الظنون، هذه القشريات اللذيذة تستبدل دروعها كما تستبدل الثعابين جلدها، تنتبذ مكانا قصيا لا يرتاده الناس هادئا ودافئا، بل ساخنا، تعافه الأسماك صغيرها وكبيرها.. تقصده بالفطرة السليمة طلبا للسكينة والأمان، من لا درع لها تحتمى تحت من عندها فضلة من درع .

مواضع أقدامه هى الأولى فى المنطقة، سنأكل اليوم "كابوريا"، يغرس السيخ الحديد المثبت فى اليد الخشبية الطويلة، اثنتان اثنتان، ما ألذ هذا اللحم الطرى !

قال كمونة: سأذهب معك فى المرة القادمة

قال عمه: رأيت الموت فى هذه المنطقة .. أسند البندقية على حافة السور من جهة البحيرة ووجهى إلى داخل المطار، أصطاد الهابطين بالمظلات، قتلت منهم الكثير، رأيتهم وهم يأسرون "مهران"، ويقتلون جارنا "السيد جوده".. رفض أن يسلم سلاحه الخالى من الرصاص، هجم عليهم بيديه المجردتين، أنقذنى هذا الحاجز الصخرى فى الماء، لم يستطيعوا العبور إلى، ظللت ثلاثة أيام فى الماء بلا طعام.

أحب الاستماع لعمي، أفتح عيني، أرى ما يقول مجسدا أمامى صوتا وحركة.

قال الجيران: إنه السبب فى حرق المناخ كله.. يقف على سطح

المنزل يطلق على الطائرات المغيرة، ثم يهبط إلى المنزل الذى يليه.. أحرقوا المناخ كله ولم يقتلوا عمى.. قتلته سيارة عسكرية مصرية، فى شارع "محمد علي" أيام "السبعة والستين" السوداء قال "المستبقون" فى المدينة: بعد كل غارة، يمرعلى البيوت بيتا بيتا، يطمئن على الناس، يقدم العون لمن يحتاج.

كان متأكدا أن نهايته ستكون بقنبلة أسرائيلية.. سيارة عسكرية مصرية! صحيح " من مأمنه يؤتى الحذر ".. ربما ظن أن السيارات العسكرية المصرية غير قادرة على قتل المصريين.. خرجت المدينة كلها فى جنازته، إنها الفجيعة الكبرى أن يأتى الموت للشخص غير المناسب، فى الوقت غير المناسب، وبالوسيلة غير المناسبة.. أستغفرك يا رب.

ابتعد عن البنات.. يا ولد

يجلس "كمونة" أمام "صينية البلي" أضع ما أكسبه في جيوبه، أنظر إلى هذه الأجسام الكبيرة التى نلعب معها، عند الإشارة المتفق عليها، يجرى "كمونة" بما يحمل فى اتجاه، وأجرى أنا فى اتجاه آخر، يجرى الجميع خلفي، فى كل مرة يتم اللعب، فى ظل تلك الظروف القاسية.

- إلى الحمام أولا.. اغسلوا أيديكم وأقدامكم.

قبل دخول البيت، نخبىء كنزنا فى الرمل الأصفر النظيف، تحت الأساس المسلح للبيت الجديد.. نأكل معها طعامها الشهى.

- لماذا يختلف طعامك عن طعام جدتى يا أمى؟

- ألا تحب طعامى ياولد؟

- طعامك ألذ طعام فى الدنيا ولكن طعام جدتى شىء آخر

وحيدة جدتي، فى هذا البيت الذى أعطاه لها "جمال عبد الناصر"، تدعو له فى كل صلاة.. دائما كانت تصلى..

قال مسئول المساكن الجديدة: أنت وحيدة يا "حاجة" وبيت فى "الحرية" مناسب لك .

بعد احتراق "المناخ" ذى البيوت الخشبية، التى يسكنها الصيادون والفقراء، عاد الناس من الهجرة الأولى، وجدوا هذه المساكن جاهزة، أقاموا قليلا فى معسكرات "الجولف" التى جلا عنها "الإنجليز" .. عدنا لبيتنا فى شارع "كسرى" .

أذهب إلى الجولف، يملؤنى الزهو وأنا راكب دراجة أبى الرالى السوداء الكبيرة، والناس ينظرون إلى فى دهشة وإعجاب .. أنطلق فى تلك الممرات "الإسفلتية" الممتدة بين عنابر "الكامب" الإنجليزي، يدور البدال فى الهواء، ألمسه فى أقصى ارتفاع له بأطراف أصابع قدمي، أميل ذات اليمين وذات اليسار بكل جسدى النحيل، حتى أتمكن من دفعه لدورة أخرى .. بنات صغيرات فى مثل سني، أجلس من يأتى عليها الدور أمامي، على ماسورة دراجتنا العملاقة، لا أجد تفسيرا لهذا الإحساس المبهج، إنها القشعريرة الغامضة، الاكتشاف الأول لهذا الكوكب الأنثوى اللذيذ ..

ابتعد عن البنات يا ولد .. يصيح عمى، وقد ارتفع حاجباه فى غضب .. ابتعد عن البنات يا ولد .. لم أبتعد، من يومها يسعين إلى

وأسعى اليهن، موغلا فى ذلك المجهول السرمدي، هذا السراب المفضي دائما إلى سراب..

أقود دراجتنا، ذات الماسورة العملاقة، بعيدا عن الممرات المسفلتة.. بعيدا عن أعين الناس، وبعيدا عن عيني عمى.. الغاضبتين.

أم الدسوقي

وهى تتسلم بيتها الجديد فى "الحرية" تقول للمسئول: أنا لست وحيدة.. معى "كمونة" ابنى

- ليس ابنك يا "حاجة".. أنت وحيدة

مات زوجها مبكرا، وتفرق أبناؤها: المراكبى أقام فى بيت أبيه فى " النسايمة "، الأصغر ركب البحر الكبير على مراكب "النابولطان".. أما الأكبر فقد حمل "عدة" أبيه واتجه إلى البحر.

يأتى إليها كل جمعة بعد الصلاة.. شيخ قريب من عمرها، نفس البياض، نفس التجاعيد، إلا أنه ملوح بحمرة البحر..

يقبل يدها، يحتضنها فى حنان ورفق، وحرص من يحتوى شيئا ثمينا وهشا، تجلس فى جواره، وفى عينيها فرحة المرأة بالرجل، والأم بالابن، والطفلة بأبيها.

الثوب الأبيض الناصع البياض، العمامة البيضاء الرقيقة حول الطاقية البيضاء، رائحة الكولونيا الفقيرة، التى تسبقه قبل أن نراه،

خفيض الصوت، لا يزاحم أحدا فى حديث، وإذا سئل، أجاب بصوت مكتمل حلو، واضح النبرات .

بحر زاخر من العلم.. قرآن كريم، أحاديث نبوية، أشعار، تصوف، أمثال، تاريخ .

على قهوة "الخلايلية"، يرتفع الصوت بين الوقت والآخر "اسأل عم الدسوقي" كان حكيمهم وقاضيهم .

أكلت فى بيته، "الكا بوريا" المحشوة بالبصل، والمدفونة فى الأرز، وأكلت فى بيته أيضا، السمك المملح فى الرمل.. قليل من يعرفون كيف يملحون السمك فى رمال الشاطئ .

رأيت فى بيته كتبا قديمة، نظيفة ومرتبة، يضعها فى مكان عال بجوار المصحف الشريف.. يحب "جمال عبد الناصر"، يتكلم عنه كما يتكلم عن "أبو زيد الهلالى" و "عنترة بن شداد".. يقول وهو حزين:

- لن يتركوه يا بنى

- من يا خالى من؟

- الكفار يا ولدى الكفار

جنة الفقراء

صممت الحرية على هيئة شرائط طولية من دور واحد.. باب ينفتح على صالة مفتوحة على ما يشبه المطبخ، ثم آخر اليسار باب الحمام، وفى أول اليمين باب لحجرة واسعة، وفى منتصف الحائط الخلفى للصالة باب ينفتح على حديقة بنفس مساحة المبنى.

يفرح الناس عندما تقبل عربة "الاستعلامات" فى الغروب بتلك الشاشة الفضية الساحرة، تقيمها فى الأرض الفضاء المنبسطة، الصغار فى الأمام، والكبار خلفهم.. إنها جنة الفقراء.

احتفظت جدتى ببعض الأدوات الجديدة، التى تسلمتها مع المسكن الجديد، وضعتها فى علبة، لا أدرى ما ذا فعل بها "كمونة" حينما صارت إليه.

نظيفة جدا وناصعة البياض، وكذلك بيتها، تجلس بجوار الباب من الداخل، تعلق طرف المغزل فى مقبضه، تغزل أكياس الصيد التى يستخدمها صيادو "الخلول".

إنهم بعض أهلي، هؤلاء المنتظمون مثل عقد بشرى بطول ساحل البحر، من المدينة حتى بوغاز "الجميل"، لوحة فرعونية حية.. الظهر المشدود للخلف، الذراعان المفرودتان المتعامدتان على ذراع "العدة" الطويل، المسافة الثابتة بين الواحد والآخر، ظهرهم للغرب دائما.. بعكس حركة المياه، يتقاطرون فى اهتزازة رتيبة، لم يقهرهم الموج الذى أكل هذه البيوت الشاطئية الغرقى.. نصفها خارجه، ونصفها يعول فيه فكه المفترس، يسحبون محاريثهم التى أصدأتها ملوحة البحر، تميمة بشرية تعلقها المدينة على صدرها، تحفظها من عوادى الطبيعة والناس، يفرغون أكياس جدتى فى "غرابيل"، يطوحونها عكس اتجاه الريح، يفصلون الثمار عن القشور، إنهم يحرثون البحر.. إنهم يحرسون البحر.

أبو العربي

ابتعد عن السور يا ولد..

يصيح فيه الجيران من سكان "الأمين"، وهى مساكن موازية لمساكن الحرية، من ثلاثة أدوار، تطل على حدائق داخلية متقابلة ومتجاورة ومتصلة بالدور الأرضي، تسلمها أصحاب الوظائف من سكان المناخ المحترق فى الحرب.. ومنهم زوج عمتى.

عندما تم نقله بعد الحرب مباشرة، إلى القاعدة البحرية فى "الإسكندرية"، واجهته مشكلة الإيجار، وهو رجل ذو عيال، قمنا بتأجير بيتنا فى شارع "كسرى"، وشغلنا بيت "الأمين" عدة سنوات، كانت كافية لتوطيد علاقتى بالبحيرة وفضائها الخلاب، حتى بعد أن عاد وأخلينا له بيت "الأمين" ورجعنا ثانية لبيتنا فى شارع "كسرى".

رجل عملاق، ذو رأس كبير وأنف ضخم وروح طفل.. "أبو العربي" هكذا يناديه الناس، العجيب أنه لم يسم ولدا من أولاده "العربي".

حكاء من الدرجة الأولى، أجلس أمامه بالساعات وهو يتكلم،

ولا يدع فرصة لأحد أن يقاطعه أو يلتقط أنفاسه، والقصص أنواع.. قصص "الفتونة" مع "فتوات" "المناخ".. قصص "النابلطان" (حينما عمل عليها مسئولا عن الماكينات) ثم قصص العفاريت والجان.

لم يكن فى حاجة إلى تلك المبالغات الضخمة التى تجعل من يستمع إليه يدارى الابتسام، فقد رأيته فعلا ينزل إلى الشارع بالنبوت في شجاعة، ولكننى أكتم ضحكى عندما يقول: أمسكت "طه الجندى" فتوة "المناخين" من قفاه، ولم أتركه إلا بعد أن قال: "أنا مرة".

أما قصص الجان والعفاريت فمنجم لا ينفذ، ولوكتبت لفاقت قصص "ألف ليلة وليلة".

يجلس عصرا أمام البيت، فى يده كوب الشاى الكبير، وفى فمه السيجارة، يراقبنا ونحن نلعب على النجيل الأخضر: "أول خرا" "اللجم" "ركبت خلولها" "جندر"..

"عرنوس" "الهادي" "صبري" "كركور" "العربى الوزير" و"حمدى الوزير".. يرسل أفضل السمك لبيت جاره الشيخ " سيد الوزير" هذا المنشد العظيم.. يتكلم عنه كما يتكلم عن أولياء الله الصالحين وأصحاب الكرامات، سحره الشيخ بإنشاده العبقرى للمدائح النبوية الشريفة.. فى الموالد، والأفراح، وحفلات الطهور، والعودة من الحج.

يخاف الظلام.. يضحك الجيران حينما يعود من قهوة "الحسيني" فى أول شارع التجارى، التى تجمع أقطاب العائلة ليلا، ويصيح بأهله أن يضيئوا السلم.

بيته فى المناخ متحف حربي، بل متحف أحياء بحرية.. وإن أردت الدقة متحف أموات بحرية، هذه "الإستاكوزا" الضخمة المعلقة على الباب بشكلها البشع، وهذه القواقع الكبيرة النادرة، كذلك تلك القطع الحديدية المتآكلة من مخلفات الحرب العالمية.. مسدسات، ودانات لم تنفجر، وقطع من الآثار البحرية الكبيرة والصغيرة.

ارتدت أمى ملابس الخروج فى الصباح، غطت وجهها بالبرقع الأسود ذى القصبة الذهبية، ألبستنى ملابسى فى سرعة واضطراب، قالت: هيا نذهب لأبيك فى "المنشية"

تهلل وجه أبى وأنا مقبل عليه..

قلت: أمى تنتظرك فى الميدان، اصفر وجهه، خلع فوطة العمل، ألقاها على الأرض وخرج مسرعا وأنا وراءه،

قال فى فزع: خير يا أم العربى

.. لم يكن من عادتها أن تخرج من البيت وحدها

قالت: وجدت صندوقا خشبيا تحت السرير

قال : نسيت أن أقول لك.. هذا صندوق "أبو العربي"، أحضره

بالأمس.. سيأخذه عندما يعود من "النابلطان"

قالت: هل تعرف ماذا يوجد فيه؟

قال : لم أفتحه

على قهوة "الحسيني" ينظر أبى إلى "أبو العربي" ويضحك.. يهزه ويقول: قنابل تحت سريرى.. أنام على قنابل يارجل؟ !

حينما يزورنا "أبو العربى " تنظر أمى فى كل ما يحمل، حتى فى "قراطيس" الفاكهة .

يحكى عن عروسة البحر التى تزوجته، واشترط عليها أن يعيش معها شهرا، ومع أهله شهرا، أما قصة المدفع فذلك بعد أن عمل فى القاعدة البحرية، لا بد أن تتحسس بأصابعك فى كل مرة، هذه المنطقة اللينة فى رأسه قبل أن يحكى الحكاية، فعندما وقع على رأسه المدفع الذى يزن عشرين طنا بقى بين الحياة والموت فترة طويلة، لولا عناية الله وبراعة أطباء القوات البحرية، نزعوا العظام التى انغرست فى مخه، وتركوا تلك المنطقة اللينة فى رأسه، فهو الخبير الأول فى محركات الزوارق الحربية "وتوربينات" الصواريخ.

"والعهدة على الراوى".. قائد القوات البحرية بنفسه زاره فى المستشفى واطمأن عليه "والعهدة على الراوى"

بدأت القصة باصطدام رأسه "بالبيجة"، ثم حدث تعديل بسيط

مع تكرار الرواية، فالذى سقط على رأسه، هو المدفع نفسه الذى يزن عشرين طنا.

ينظر أبى إلى تلك المنطقة المنخفضة فى رأسه مشفقا..

العجيب أنه بعد أن ماتت عمتى وتزوج أولاده، وجدوه قادما بفتاة صغيرة من الريف، أولدها عددا من الأطفال يماثل ما أنجبته عمتى.

ابتعد عن السور

ابتعد عن السور يا ولد..

"كمونة" هو السبب، يحاول صيد العصافير "بالنبلة" من حدائق "الأمين" فيكسر زجاج البيوت.. كنت ماهرا فى صنع هذه "النبال"، من عجل الطائرات الداخلى الأحمر السميك، الخطان المتوازيان تماما، و"اللقمة" الجلد اللينة بحجم الحصاة الصغيرة، والمقبض الحديدى المجدول فى تناسب واكتمال..

لم تعد مادة من سلك وجلد، إنها جزء من أعضائي، لها حساسية أصابعى، وتوثب روحى، وثاقب رؤيتى .

أخرج إلى الأرض الفضاء، الفاصلة بين المدينة والشاطئ الجنوبي، أنصب "الفخاخ" التى أعمرها بالديدان .. "المنيح" الذى أجمعه هو و"القراص".. هذه الحشرة الحمراء التى تشبه العقرب الصغير، من بين الأحجار الطينية المالحة .

يمر الوقت سريعا، وهو "يُدَرِّج": "البِقّير" "الدقناش الصُرّيطي"

"الدقناش الأقرع" "الزرزور" "الحِمّير" "النقرظان".. تنسيه النشوة، آلام تلك المناقير الجارحة المستميتة وهو يفكها من الفخاخ.. لو أن معه بندقية!

حارة البكري

قبل سفره زارنا الخواجة فى محلنا الجديد

_ أحوالك لا تعجبنى يا محمد لا زال فى مقدورنا أن نصحح الأمور

_ أشكرك يا "خواجة" لقد نسيت هذا الموضوع

أبدا، لم ينس أبى هذا الموضوع طيلة حياته، أصبح عليه أن يعمل أربعة وعشرين ساعة تقريبا فى اليوم .

فى النهار "المعمل" و"الفرن".. المعمل: طاولة رخامية ضخمة تملأ الفراغ القليل بين حائط الحمام الصغير وحائط الحجرة الكبرى، فى بيتنا فى حارة "البكري"، فوقها رفان كبيران على الجانبين، واحد عليه "عدة " الحلويات التى يستخدمها أبي، والآخر عليه أدوات الطبيخ التى تستخدمها أمي، أما الفرن: فهو فرن "عزت" فى شارع الحميدى.. ومع أول الغروب إلى آخر الشروق فى محلنا فى شارع

"كسرى" ننتظر الرزق الصعب، عمى أيضا هدّه الإجهاد وقلة الرزق..

- سأسافر "للسويس" سأعمل عند ابن عمى فى "أستوديو" التصوير

- وفقك الله يا أخى

عناق حار ووداع سريع

نظر أبى إلى وقال: جاء وقت الجد أيها الرجل الصغير..

بيت صغير فى حارة "البكري" وشارع "كسرى"، يملك كل طابق ساكنوه، نسكن الطابق الأخير، حجرة عمى المسافر على السطوح، هناك أيضا الحمام والأرانب، وخيمة "البلاج" ملفوفة بعناية حتى يأتى الصيف، وأيضا برميل السردين المملح الخشبى الكبير، وبرميل السردين المملح الخشبى الصغير، الكبير خزين العام، والصغير بملحه الخفيف للاستهلاك خلال الموسم، فيه تصبح المدينة كلها برائحة السردين "الدهنة" و"المبرومة"، يأتى الفيضان وتتعكر مياه البحر "بالطمي" الأحمر، وجذوع الأشجار، وكثير من مخلوقات الله الغارقة فى النيل، وتمتلئ الأفران بكل أنواع السردين: المشوى فى "الصاج" والمشوى على "البلاط" و" السنجارى " و"الصينية".

يعبأ السردين المملح فى صفائح مربعة مغلقة بالقصدير، تحملها سيارات النقل إلى كافة أرجاء مصر.

فى موسم السردين تشبع المدينة وتتزوج البنات وتتعمر البيوت، وكما يخزن الفلاح الحبوب لعمار بيته طوال العام، نخزن نحن السردين المملح .

هناك أيضا موسم الشبار الأخضر، وموسم الشبار الأبيض، و"اللوت" و"الحناجل" و"الحلبوش" و"الدينيس" و"اللاج" و"النقط" ولكن موسم السردين هو العيد الحقيقى.

تجربة غير عادية، أن تعيش وحدك فوق الناس، مع حمام يألفك، يقف على كتفيك ويأكل من يدك، وأرانب تستأنس بك، وتتشمم أطرافك.

المدينة مختلفة من فوق السطوح، الفنار ودورته الرتيبة، الهواء المصفى، الوحدة، الوقت الكافى لاستكشاف الذات والتأمل، ورزم من مجلات الأطفال وشخصياتها الحية.. "ميكي" "تان تان" "تم تم" "زورو"، نشتريها بالميزان ونخزنها لزوم المحل، أدمنت القراءة، لا بد أن تمر كل ورقة تحت عينى قبل أن تصل إلى يد الزبون.

بعد سفر عمي، تبدأ نوبتى قبل الفجر بساعة أو ساعتين، ليستريح أبى حتى ميعاد المدرسة.. بطئ هذا الليل وثقيل، يترك المجلة التى قرأها للمرة الثانية، يمسك "غابة" طويلة، يطارد "الخفافيش" التى جذبها الضوء فى الشارع الخالي، يفرح عندما تصطدم الغابة "بخفاش"

غير حذر، بعض "الخنازير" المنطلقة من "زرابيها"، تجوب شوارع المدينة، تغير اتجاهها مبتعدة، عن هذا الراقص وحده فى الليل .

أتمدد فوق كرسى "البلاج" أمام المحل، أحاول أن أفتح عينى حتى لا أسقط فى نعاس غبشة الصباح، أضع فوطة العمل فوق كتفى أتقى بها لسعة الفجر التى تتسلل حتى العظم .

- لماذا أتيت مبكرا؟

- نسيت أن أُنَبِّهَك

يتجه أبى ناحية " الصاج " الأخير من جهة الحارة،

يتقلب وجهه بين العبوس والابتسام،

فى نظره مزيج من اللوم والشفقة، وكثير من قلة الحيلة

- لقد ضحك عليك يا حمار

- من يا أبى؟

- الحمار

يخبئ جسمه الكبير فى الحارة الجانبية، ينتظر حتى تهدأ الحركة تماما، فى الوقت الذى يميل فيه الصراع لصالح سلطان، النوم ويمدد رأسه، يأخذ الفطيرة من الصاج، يبتلعها فى هدوء، ويعود يكرر ما فعل بحذر فطرى خبيث، أحس به أبى بالأمس ونسى أن ينبهنى .

يتعلق أبى بثيابى وأنا أنطلق خلف الحمار كالمجنون، تلتقى عيوننا،

ثم ننطلق فى ضحك "هيستيري".. ماذا سنأكل غدا؟

فى الأيام التى يقل فيها الرزق، كنا نأكل من فطيرنا اللذيذ، كثرت الأيام التى أكلنا فيها الفطير حتى مللنا، فى أوقات كثيرة كنا نفضل الجوع على أكل الفطير..

- أعطنى الذهب سأشترى محلا فى "الإفرنج"

- إنه مصاريف الجامعة.. هذا كلامك

- إنه مالى.. قلت لك "هاتي" الذهب

ملقاة هذه المرأة القوية على الأرض، أول مرة يرى دموعا فى عينيها.. أول مرة يرى أباه هكذا، تلتقى عيوننا، يطرق أبي، يخرج متعثرا فى يأسه وندمه.

استعادت الأم توازنها سريعا، تناسى الجميع هذه اللحظات الغريبة، لا أنسى نظرة أمى وخجلها أن أراها هكذا، لم تكن خائفة ولا ضعيفة إنما مشفقة على مما أرى .

فى الليل يعلو صوتها الضاحك مع أبى.. لم يكن من عادتها أن يعلو صوتها، فرغم صغر البيت، لم يشغلا أى مساحة مادية فى فراغه القليل، كانا روحين وحده يعلم الله متى وكيف يلتقيان، ما الذى تفعله أيها الفقر بالناس؟

ما الذى تفعله أيها الحب بالناس؟

وكما ذهب عمي فجأة عاد.. عاد مغبرا هزيلا، ذكرنا بأيام التهجير السوداء.. كانت فرحتي فرحتان، فرحة أن أرى عمي، وفرحة أن أرتاح من سهر الليل.

قال أبي: كنت أعرف أنه سيعود

قالت أمي: لماذا لم تمنعه من السفر

قال: لا بد أن يجرب.. لا بد أن يأخذ قراره بنفسه

يا عسكرى يا أبو بندقية
يا زينة الأمة المصرية

أحب هذا النشيد.. من يوم أن صفق لى الناس، وأنا أقوله أمام لجنة تسليم البطاطين للمهاجرين، فى الإذاعة الداخلية لمدرسة "أجا" الابتدائية وهذا النشيد نشيدى، كلماته بسيطة وحماسية، لكننى كان لا بد أن أمر بالتجربة.

وضع قطعة الحلوى مرة واحدة فى فمه الكبير، ثم أتبعها بالأخرى

- أين تذهب أعطنى ثمن ما أكلت

يهوى الرجل الضخم بيده على الوجه الصغير، اهتز الشارع، البيوت تتمايل، لا يدرى كم مضى من الوقت حتى استقرت البيوت مرة أخرى، هل هى الصفعة أم هول المفاجأة؟

ارتجت البيوت مرة أخرى، عندما اصطدم الحجر بهذا الرأس المخيف، يهجم الحيوان على المحل، يكسر ما يعترضه، يقلب الصواني، يدوس على النعمة الممتزجة بالعرق والدم..

لن أنسى أبدا هاتين العينين الغبيتين المظلمتين

- الشارع دنيا فيها الخير وفيها الشر

- إنه شرطى يا أبى

- فى كل مهنة الصالح والطالح

- مهنة ! كيف يكون الشرطى لصا ومجرما يا أبى؟

لم يهدأ أبى إلا بعد أن قالوا: لقد انتقل إلى بلدة بعيدة خوفا من انتقامك . .

عرفت الآن. . التجربة وحدها هى التى تعطى الكلمات معانيها .

تحيا مصر

يفجؤنى أبى بالسؤال: كم فى جيبك يا بنى؟

يعطينى مثل ما فى جيبى.. من يومها وأنا حريص ألا يخلو جيبى من النقود..

لم يعد "كمونة" يرافقنى على دراجتنا "الرالي" الكبيرة إلى المدرسة، لم أصدق أنه يخجل من صينية البقلاوة . .

أحضر إلى المدرسة مبكرا، أفتح "الكانتين"، أضع الصينية ثم أغلق الباب، وأقف فى طابور الصباح، لم يكن خوفا من الأستاذ "رمزي" الصارم، فأنا أحب أن أقف مشدودا، أنظر إلى العلم وأجأر بصوتى " تحيا مصر" . .

كل المدرسين يسمحون لى بالخروج قبل "الفسحة" بدقيقة أو بدقيقتين إلا مدرس الحساب.. ضربنى مرة على وجهي، أصفعه فى أحلامى صفعة قوية ولها فرقعة .

قال مدرس الرسم: فى كل مرة ترسم بندقية؟

- ألم تقل هذه حصة الاختيار الحر؟ ثم إنها تختلف عن تلك التى رسمتها من قبل، هذه لها ذراع، ولا تنكسر عند الحشو

يقف بالساعات أمام محل "سرحان" لبيع الأسلحة، هذه "تل" وتلك "ديانا"، وهذه "فالك"، وهذه التحفة "بى إس إيه"،

عرفه أصحاب المحل وتركوه..

- أريد بندقية يا أبى

- يفرجها الله يا بنى

جدتى شفيقة

تأتى كالفرحة وتمضى كالطيف، يسبقها صوتها المجلجل قبل حضورها المقتحم، بقوامها الرشيق وتقاطيعها الخمرية الحادة، وهذه الشامة الكبيرة بجوار فمها المفتوح على الدوام.

لا تكاد تستقر، كطائر على أهبة الانطلاق، تأخذنى على رجليها وهى تحدثنى وتقبلني، تضع فى جيبى "مليما" أو "مليمين"، من تلك "الملاليم" المعدنية الصفراء الكبيرة، عليها ذلك الوجه السمين ذو "الطربوش"، توزع على جيوبى ما أحضرته لى من حلوى.

بعد الغذاء، يتمدد أبى على أرضية البيت الخشبية أمام باب السطوح، يستقبل تيار الهواء المشبع باليود ورائحة البحر، يضع رأسه فوق فخذها، تمسحه فى حنان وهو مستسلم مثل طفل، وتظل صامتة حتى يفيق.

رأت زوج أختها على رأس الشارع، قادما بقامته المديدة، وبدلته العسكرية السوداء، بأزرارها النحاسية اللامعة، شهقت من الفرحة ثم سقطت فى مكانها.

قال القادمون من "الإسماعيلية": مات في معركة الشرطة مع "الإنجليز"، وها هى تراه قادما، بلحمه وشحمه، وبدلته السوداء وأذرارها الصفراء اللامعة.

قال الطبيب: قللى من الحركة وأكثرى من الراحة ولا تحزنى وأيضا لا تفرحى فهذا خطر عليك

قالت للطبيب: حاضر يا بنى.. لن أحزن ولن أفرح

جلست بجانب رأسها، وهى ممددة، وصامتة، وملفوفة فى القماش الأبيض الجديد..

- أنت هنا وعمك قلب الدنيا عليك ألم أقل لك لا تدخل هذه الحجرة؟

- إنها نائمة.. أليس كذلك يا أبى؟

- قلت لك ماتت يا بنى الله يرحمها

عدنا من المقابر وأنا غير مصدق أننى لن أراها مرة أخرى.

تزورنى فى الليل ملفوفة فى القماش الأبيض، الذى تشع منه رائحة "النفتالين"، أحزن عندما أستيقظ فى الصباح فلا أجد تلك الحلوى فى جيوبي، ولا أجد فى قبضتى المنقبضة تلك "الملاليم" النحاسية الكبيرة.

سيد هتلر

- حلمت حلما بالأمس يا أمي
- قل حلمت خيرا بالصلاة على النبى أولا
- حلمت خيرا بالصلاة على النبى أولا، أنى أسير مع أختى "حبيبة" فى حديقة فيها ترعة صغيرة، سقطت أختى فى الترعة، هى تغوص وأنا وراءها، تمد يدها الصغيرة أكاد أمسكها.. تنفلت منى فى ظلام الترعة العميق، وصعدت وحدى..

مرضت أختى لليلتها، أتى الصباح وهى ميتة .

ينظر أبى إلي، قلبه فى عينيه، يقطر حنانا وفزعا..

فى ليالى الشتاء، ونحن نلتف حول المدفأة النادرة التى اشتراها من البحر، ونحن نأكل "الكستناء" المشوية المرصوصة على سقفها الخزفى المائل إلى الاخضرار، لم يعد يحكى لنا أبى نوادر أخيه الصغير "سيد هتلر".. أسماه الجيران هكذا "سيد هتلر" يقول:"تولبيد" يسقط " طوربيد" ألمانى على المدينة، يعرفون أنه "ابن موت".. وجدوه ميتا ذات صباح دون سابق إنذار .

أتصنع النوم وأبى يقبلنى فى الصباح، أمسح عن وجهى قطرات الندى الدافئ.. لم أعد أحكى أحلامي، حتى لا أرى هذا الطائر المفزع فى عينى أبى.

سينما "ريالتو"

- "بتعريفة" "سمنية"

تحول الكون إلى موسيقى بيضاء، كف عقله عن التفكير، يحاول أن يبعد نظره عن هذا الوجه الجميل، لماذا يخشى أن ينظر فى عينيها؟

هل هى "ميدوزا" التى ستحوله إلى حجر، أم هى "الجنية" وهو "المجذوب"؟

الشارع ممتلئ بالبنات لماذا لا يحدث ما يحدث إلا معها ومعها فقط؟

يقول عقله: إنها لعنتك الأبدية

يحزن عندما يراها تضحك مع بعض أخواتها من هذا "الأهبل" الصغير، الذى ملأ "القرطاس" الكبير بخمسة "مليمات"، لا تدرى الحمقاء أنها لو طلبت أن يضع لها روحه فى "القرطاس" لفعل . .

ربما تحبها، قال عمه وهو يضحك بينما يسيران فى شارع "الكورنيش" قبل ميعاد السينما.

كل خميس يذهبان إلى السينما، إما سينما "ريالتو" أو سينما

"الشرق" صيفا، وإما سينما "ريو" أو سينما "ماجيستيك" فى الشتاء..

من لا يدفع ثمن السينما، يشترى فى الاستراحة سندويتشات الفول والطعمية والباذنجان.

لا أحب أن أذهب إلى السينما وحدى.. ذهبت مرة وحدى إلى سينما "الأهلي" فى الحفلة الصباحية، لم أستطع أن أكمل الفيلم، وجدت يد الرجل الكبير الجالس بجانبى تتسلل، وتتحسس عضوى، أحسست بالقرف، غادرت السينما وانا أضع يدى فى جيبى حتى أدارى انتصابى.. حينما حكيت "لكمال" قال: لماذا لا تحس بالقرف وأنت تأخذ "سماسم" أمامك على ماسورة الدراجة ؟

كل فصلنا يحلم "بسماسم" هذا الولد "المربرب" الأسمر وشعره الكستنائى الناعم، ينسدل على جبهته فى أنوثة بادية، كنت الوحيد الذى يلجأ إليه" سماسم " طلبا للحماية من هؤلاء الشياطين.

أفلام أمريكية غالبا، "جاك ليمون"، "تونى كيرتس"، "جارى كوبر"، " كيرك دوجلاس".. أحببته فى دور "سبارتاكوس" وحزنت بشدة حينما عرفت أنه "صهيوني".

ترتبط "أميريكا" فى ذهنه دائما بالسينيما و"بحسن" ابن الجيران، وضع "حسن" رأسه فى كيس اللبن "الجاف" المرسوم عليه

العلم الأمريكى بخطوطه الكثيرة ونجومه التى بلا عدد، والمكتوب عليه بخط كبير "معونة من الشعب الأميريكى "، تجمد اللبن الجاف فى حلق "حسن".. جحظت عيناه وأوشك على الموت، لم يستطع إصبعى الصغير أن يخترق اللبن المتحجر فى حنجرته، وضعت القلم الرصاص بإصرار حتى وصل الهواء فى آخر لحظة.

أحببت أقلام الرصاص.. ما رأيت قلم رصاص فى مكتبة إلا واشتريته، وما أرى كلمة معونة فى جريدة إلا وأرى عينى "حسن" الجاحظتين وأسمع حشرجته اليائسة.. وما أسمع نشيد:

مصر مصر مصر أمنا
وفخرنا وعزنا ومجدنا
نيلها الحياة منة الإله
شعبها الأبى وجيشها فداه

الذى كنا نردده فى مدرسة السلام الابتدائية المشتركة، إلا وأرى عينين واسعتين لطفلة صغيرة تخطف روحى.

السراى الصفراء

حى العرب مقسم هندسيا إلى شوارع طولية وشوارع عرضية فى نظام ثابت تقريبا.. بالطول الشوارع الأساسية الواسعة: السواحل، كسرى، الحميدي، الثلاثينى.. وبالعرض: "الأمين" – وهو عمليا، الحد الفاصل بين حى "العرب" وحى "المناخ" – ثم، "نبيه"، "عدلي"، "بنى سويف"، "أسوان"، "المنيا"، "الجيزة"، "الدقهلية"، "أبو الحسن"، "الروضة" (سوق السمك)، حتى نصل إلى شارع "محمد علي".. يفصل بين حى "العرب" وحي "الإفرنج".

وبين هذه الشوارع الأساسية بالطول أو بالعرض شوارع أقل اتساعا، تفصل بينها حارات مرصوفة بمكعبات الحجر البازلتى الأسود الذى يلمع تحت ماء المطر فى الشتاء.. كنت أخبئ حجرا منها فى "صندرة" السلم، أستخدمه فى كسر ثمرة "الدوم" حتى أحصل على نواتها البنية الصلبة التى تشبه ثمرة الجوز الصغيرة..

من يقع فى دائرة شارع كبير، يصبح من أهله، وقد يسمى الشارع

باسم واحد أو أكثر من سكانه المشهورين، فشارع "بني سويف" هو شارع "كبرة" في نصفه الشمالي، وهو أيضا شارع "نجم" في نصفه الجنوبي، كذلك بعض الحارات.. حارة "أبو دنيا" مثلا .

أما شارع "أسوان" الذى تتبعه حارة "البكري"، فاسمه على لسان الناس شارع "السراية الصفراء"، ولا يقولون شارع "أسوان" كما هو مدون على اللوحات الحديدية المثبتة على جانبيه، والمكتوبة بالعربية و"الإفرنجية"، ولم يتسم هذا الشارع في يوم من الأيام باسم شخص من سكانه.. ربما لكثرة الشخصيات المشهورة فيه .

و"السراية الصفراء" مبنى ضخم، يشغل مساحة مربع سكني، والمربع " ستة " بيوت من بيوت الحى الصغيرة المتشابهة فى الشكل وفى المساحة، ثلاثة فى الواجهة تطل على "الواسع"، وثلاثة فى ظهرها تطل على "الحارة".. حى العرب القديم كله مبنى على نظام المربعات..

يقول الكبار كان مستشفى للمجانين، رأيته لفترة مشغولا بمدرسة ابتدائية، ولأنه لم مصمم أصلا ليكون مدرسة، جعل التلاميذ شارع "أسوان" النظيف فناء يتراصون فيه لتحية العلم كل صباح .

لعب على أرضه مشاهير الكرة في المدينة " نجم " وأخوه " أمح " " السنجق " " العربى الشكورى " وغيرهم.

كثرت هزائمنا والسبب "فرج" هذا المارد الأسمر.. كابتن الفريق

قلت لعم " محمود " الحلاق: هذا ظلم

قال: أنت لم تره فى شبابه

يدعى "فرج" المرض ويعتذر عن المباريات الهامة، وكنا ننتصر، كان الجميع يعرفون.. وكان الجميع راضين.

ضربت شخصا من شارع "عدلي" نظر إلى حبيبتى نظرات لم تعجبنى.. كانت تقف على باب "المندرة" تنتظر صديقتها، جمالها وزينتها يلفتان الأنظار

كاد أبناء "عدلي" أن يفتكوا بى لولا "فرج".. أخذنى إلى شارعهم واعتذرت، عيب أن تضرب أحدا فى شارعك، وعيب أيضا أن تضرب من يعتذر لك فى شارعك.

وشارعنا منافس خطير فى حرائق "شم النسيم"، ندخر الوقود من الأخشاب والأقفاص من العام للعام.. مع اقتراب الموعد يصبح من المألوف رؤية "الدمى"الكبيرة المحشوة بالقش تتدلى من النوافذ، ومن أسطح المنازل، لا تكتمل الحريقة إلا بحرق "الألمبي"، ندخر أيضا الزجاجات الفارغة والأحجار لمقاومة الحكومة إذا قررت منعنا، وتحسبا لأى عدوان مفاجئ، من"حارة" أو"شارع" قريب أو بعيد..

تقوم المعارك غالبا بسبب خلافات تافهة ولولا وجود الحكماء من

أمثال "فرج" لسالت كل يوم دماء، فالناس دمهم حامى وعواطفهم متأججة.

سماء ملطخة ببقع رمادية، يتخللها ضوء باهت لشمس خريفية غاربة، السراى الصفراء بشبابيكها الخشبية الكبيرة، والمتراصة فى نظام ثابت والمغلقة دائما.. "البلكونة" الخشبية الممتدة بطول المبنى والمستقرة على أعمدة خشبية غليظة، تحد الرصيف الطويل الذى كنا نلعب عليه الكرة ونحن صغار.. سطح المبنى الذى يبدو متهالكا قياسا إلى سائر المبنى القديم القوى بحجارته الصفراء الضخمة.

إحساس يشبه اليقين أن فى هذا القصر الموحش حياة، يقسم "أبو عوض" البقال أنه سمع فى مرات كثيرة أنينا معذبا خلف الشبابيك المغلقة، وأحيانا يسمع ضحكات مرعبة كضحكات الشياطين.. السراى "مسكونة".

تهبط كتل الظلمة خانقة وثقيلة، هبة هواء باردة ينكسرأمامها القميص الصيفى الخفبف بأكمامه القصيرة، تنكمش المسام عند منابت الشعر، ويقشعر البدن.. إنها سراى صفراء أخرى فى الليل أرانى أجوس فيها.. أفتح نوافذها نافذة نافذة، أفتح أبوابها المائة بابا بابا، إنها التجسيم الحى لعالم "ألف ليلة وليلة" الذى أخطو فيه بنهم الصبا العفي، وشبقه الفائر، وخياله الممتد بلا حدود.

كليوباترا

يستند برج الحمام على حائط الجيران..

قبل أن يتعملق هكذا ويحجب عنا نصف المدينة من جهة الجنوب، كان بيت "طه الصغير" قديما قصيرا تمتلئ "سطوحه" بكل أنواع الطيور الداجنة.. "أشب" على السور الجنوبي أقلد صوت الديك الرومي، يشتعل السطوح بأصوات كل الديوك الرومية الغاضبة..

على سطوح بيتنا، "أصص" الورد البلدي بألوانه الفاقعة، والفلفل الأحمر والأزرق والأخضر بقرونه الخزفية الصغيرة.. نسمة ربيعية دافئة تهز حبل الغسيل على سطوح الجيران، لماذا هي بهذا الجمال، تلك الملابس النسائية بألوانها الصيفية التي تختصرها عيني، في هذا اللون الأرجواني الدافئ، أنتشي وأنا أرى الحمالة النسائية، في رقصتها الوحشية فوق جمرات الخيال، ما هذه الفوضى الجسدية التي تعتريني؟.. يزورني حبل الغسيل في الليل كائنات أنثوية، لها رحيق الورد، وبهجة العسل، ونضارة الفردوس.

يحرص أبى كل صباح أن يرانى أشرب كوب اللبن، بعد أن يضع فيه بيضتين نيئتين طازجتين.

تهتز الكنبة القديمة.. المحشورة بين الحائط واالسرير ذى الأعمدة الحديدية المرتفعة، تعبث أصابعه فى "الكريتون" الذى حال لونه من كثرة الغسيل، وهى جالسة على كرسى خشبى أمامه، تفصل بينهما "ترابيزة" صغيرة، مفتوح فوقها كتاب الإنجليزى "قصة كليوباترة"، على طرف السرير، تتكئ زميلتها بجسدها الفائر، المتفجر من قميص النوم الصيفي، تنظر فى عينيه اللتين لا تريان أى شىء

تقول الزميلة: مسكين "هارمكيز" هذا العابد "لكليوباترة"، هذا المطرود من جنتها

تقول "كليوباترة": هو الذى يفعل بنفسه ما يفعل

– دعينى أقرأ هذا المقطع.. ما أقسى قلبك يا "كليوباترة"!

يضع الكتاب.. ينظر فى عينيها: أنا أحبك

أخيرا قالها.. خرجت الألفاظ واضحة مرتبة على حين غفلة منه

صوت "عبد الحليم حافظ" يصرخ وحده فى فضاء الكون:

"قول بحبك.. قول كرهتك.. بس قول لى أى حاجة يا حبيبي"

– أنا لاأكرهك

ياللعذاب.. إنها لم تقل أى حاجة يا "عبد الحليم حافظ"

الأستاذ محرز

لا أنسى أبدا وجها رأيته، وأحب الهندسة وأكره الحساب، فعقلى لا يحتفظ بالأرقام، أعشق التاريخ فى الوقت الذى أنسى فيه أسماء الناس، أجلس مع الشخص ساعة نتحدث أخاف أن أناديه باسمه فلا أجد ذاكرة تطاوعنى، وأحب الشعر أحفظ القصيدة من القراءة الأولى.

تشتبك الكلمات فى فم الأستاذ "محرز" مدرس اللغة العربية وهو يشرح قول " ناجي":

وأنا منك فراش ذائب فى
لجين من رقيق الضوء ذابا
فرح بالنور وبالنار معا
طار للقمة محموما وآبا
آب من رحلته محترقا
وهو لا يألوك حبا وعتابا

يحاول التصوير بيديه، يضع يده فى شعر"عبده معروف" الجالس فى المقعد الأمامي، يروح ويجيء فى الفصل كأسد حبيس، تجحظ

عيناه وتنتفخ أوداجه كمن يوشك على الاختناق، ينظر إلى: قل يا ولد، وأقول وأنفاسي تتهدج، فتح الله عليك يا ولد.. وبين قل يا ولد، وفتح الله عليك يا ولد، تنتهى حصة النصوص ولم يشرح الأستاذ "محرز" بيتا واحدا .

فى حصة التعبير يقول "لكمال" المنهمك معى فى لعب "الضامة":
أبشر فأنا أرى قفاك فى نفس المكان العام القادم

يقول "كمال": وهل ترى البشروش أيضا

- هو ذكى وسينجح.. الدور عليك أنت يا "حمار"

نذاكر معا.. فى بيتى أو فى بيت "كمال" القريب من بيتنا، أو فى بيت "حنا" أمام الكنيسة الإيطالي، أحتاج الحساب و"حنا" يحتاج "الإنجليزي"، و"كمال" يحتاج المواد الدراسية كلها

"كمال" "بهائي" يكتب فى بطاقته الشخصية مسلم.

أولاد الأبالسة

تكثر أمى من "البسملة" طوال الطبخ، وأثناء غرف الطعام، حتى تحل فيه البركة.. لا مشاكل لى مع طعام "المسيحيين" فهم "إخواننا فى الوطن والدين".. كما يؤكد الأستاذ "محرز"، والدين لله، والدين عند الله الإسلام، والمؤمن من آمن بالله وكتبه ورسله، والله وحده يحكم بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون.. حتى الآن الكلام جميل، أما "كمال"، فخارج الموضوع، ولوترك الأمر للأستاذ "محرز" لطرده من المدرسة، بل من الدنيا كلها، فوجوده مع أهل الدين حرام، ومصادقته حرام، ومؤاكلته حرام.. أكلت فى بيت "كمال" "أرز وفول حرادى مدفونة" وشبعت..

قالت أمى عندما أخبرتها: هل "سميت" قبل الأكل ؟

قلت لها: "سميت".. خجلت أن أقول لها: لا أتذكر

قالت : المهم النية.. طالما نيتك سليمة ستحل البركة

الله عليك يا ماما "نعيمة"

أبو "كمال" عجلاتى.. أركب أنا "الموتوسيكل الماتشليز" رقم 45 ويركب "كمال" "الموتوسيكل" الآخر رقم 40 ونتسابق ليلا فى طريق "الكورنيش"..

يعيد "كمال" مفاتيح المحل قبل أن يستيقظ أبوه، لما سأل لماذا يجد "الموتوسيكلين" دافئين فى الصباح

قال "كمال": ربما يركبهما العفاريت فى الليل .

فى إحدى المرات اختبأ أبوه فى "صندرة" المحل.. هجم علينا فأطلقنا ساقينا للريح .

يقول: عفاريت يا أولاد "الأبالسة"

يحب "كمال" فتاة مسلمة قال: سأسلم وأتزوجها

لم يسلم "كمال"، ولم يتزوجها .. حتى لو أسلم ما كان لبيت فى بورسعيد أن يزوج ابنته لواحد من "المرتدين" كما يقول الأستاذ "محرز" ..

عاش "كمال" بجرح فى قلبه لم يندمل، نفس الجرح الذى لم يندمل فى قلبي، ولأسباب مختلفة

وات تايم

بعد أن أفلس أبي، عمل فى مصنع "بروك بوند" لتعبئة الشاى الذى "أممه جمال عبد الناصر"، تسلم دراجة جديدة ماركة "نصر".. نفس الدراجة التى تنتجها المصانع "الهندية"، أخذتها واحتفظ هو بدراجته "الرالي" السوداء الكبيرة.

- لا أحب اللون الأخضر

- أعرف يا بنى.. كل الدفعة خضراء

قِلبت "الجدون" حتى تصبح شبيهة بدراجات السباق.. أتسابق مع "كمال"، هو بدراجته "الأربعة والعشرين" السوداء، وأنا بدراجتى "الإسبور" الخضراء الجديدة.. أجده قبلى دائما أمام مدرسة "الأقباط " الثانوية فى شارع "محمد علي"، لم أتخيل أنه يكذب إلا بعد أن شاهدته بعينى رأسى يخرج إلى شارع "الثلاثيني" الواسع، شرط السباق شارع "التجاري" المزدحم بالناس وعربات اليد المحملة بالبضائع.

بعد أن نجحت فى الإعدادية اشترى لى أبى بندقية صيد "تشيكي" ماركة "سلافا".. صنعتها المصانع الحربية بعد ذلك وأسمتها "رمسيس"، اشتراها ضمن "استمارة التقسيط" من محلات "عمر أفندي" التى أممها "جمال عبد الناصر"..

لم أقل له: إن حلمى بندقية "تل" من محل "سرحان" فى شارع "التجاري"

مع الوقت أحببت بندقيتى واعتززت بها .

نذهب للصيد أنا و"كمال" و"نبيل الطيب" المجنون بالصيد.. يجمع فى بيته الحلقات المعدنية التى يجدها حول أقدام الطيور: "الواق" "السويد" "السوفري" "البط" "الخضير".. عشرات الأنواع التى تحضر فى الموسم، نصطادها إما من عند كوبرى "الجميل" المكسور منذ العدوان الثلاثي، وإما من المزرعة الغربية فى طريق "الجميل"، أو من المزرعة الشرقية بين "الترعة الحلوة" و"قناة السويس".. نذهب إليها صباح "شم النسيم" بعد حرق "الألمبي"، نأكل فيها "الخرشوف" "البنجر الأحمر" "الجدرة" و"التين الشوكي"، وإما من "الجبانات".. لدينا أفخم جبانات فى مصر، جبانة "الحلفاء"، نجيل أخضر فاقع اللون، يمتد مثل سجادة سميكة، تغوص فى طراوته الأقدام، فوقه الشواهد الرخامية، المنقوش عليها بالأحرف الإنجليزية الكبيرة أسماء

الجنود الميتين فى الحرب العالمية، مرصوصة فى نظام، وكأنها طابور عسكرى ينقصه الأرجل والأذرع والرؤوس.

يقول أبى وهو يبتسم: معظمهم من "الأفارقة" و"الهنود".. يقفون خلف أسوار معسكراتهم الشائكة، المطلة على طريق "الجبانة"، ينتظرون الجنازة، يقول الناس: يادايم يادايم والدايم هو الله،

وهم يرددون: "وات تايم وات تا يم وات تا يم سكس كلوك".

"جبانة" الأجانب مبنية على النظام الأوروبى.. أمام الباب الخشبى المنحوت المزخرف تنتصب التماثيل الرخامية الرائعة، بالحجم الطبيعى وعلى الشواهد والأبواب صور الميتين، فى أطباقها الخزفية الملونة، وقناديل الشموع الفاخرة.

مقابر المسيحيين المصريين ليس فيها بذخ مقابر الخواجات، هى أقرب إلى مقابر المسلمين، مظاهر البذخ والأبهة فى الجنازة، العربة الفاخرة التى تجرها الأحصنة المطهمة، والتابوت الخشبى المزخرف، تنسدل حوله ستائر العربة السوداء، وهؤلاء المشيعون بملابسهم الرسمية.. مشهد آخر أبهه.

مستطيل صغير من الأرض، محشور بين موتى المسيحيين وموتى المسلمين، حوله سور متداع من الطوب الأحمر، فيه أعلى "سنديانة" فى الجبانة، وفيه أيضا قبور هدمتها الطبيعة والوحشة، على شواهدها

نجمة سداسية، وكتابة بالعبرية، تكاد لاتبين وسط أحراش من الشوك، والنباتات الوحشية المرتجلة، التى تعمل كهوفا من الظلمة، تشبه تلك الأماكن المهجورة التى يسكنها "فرانكشتين" فى أفلامه المرعبة، تأوى الثعابين، والحشرات السامة، كنت أنزل إليها بحثا عن طيورنا التى تسقط فيها .

"ألأحواش" الكبيرة، فى أول مقابر المسلمين، ثم يقل حجم المقبرة كلما اتجهت غربا، الناس درجات حتى وهم تحت الأرض.. لا بد أن يزور الناس مقابر الشهداء، ففى كل بيت فى بورسعيد شهيد .

لا يدفن "البهائيون" فى الجبانة، يدفنون على طريق دمياط فى الرمل المالح، سألت قالوا: يرفض أهل الدين قبول الكفار، الأرض نفسها تطردهم، الرمل المالح على الطريق يلفظ الجثث.. الناس هم الناس حتى فى مملكة الموت .

السيد حنجل

- لن أعطيك كرة أخرى يا بشروش

- لقد أحرزت هدفا

- هدفا ميتا لا طعم له، أعطيك الكرة تردها لي، هل تفهم يا أنانى؟

قصير هذا "السيد حنجل" وعنيف، يهرب أى حارس مرمى من تسديدته القوية، يقفز فى الهواء، ثم تنطلق الكرة كالقنبلة من قدمه المقوسة، يضحك "محمدون"، أثقل وزن فى المدرسة، وربما فى المدينة كلها، ولكنه بالتأكيد أخف دم فى الدنيا

- سألعب معكم.. أنا فى فريق "البشروش"

لا يعترف "محمدون" بوزنه الثقيل، يرى نفسه رشيقا، والعجيب أننا نصدقه.. أهجم عليه محاولا إبعاده بالقوة، يضع رأسى تحت إبطه الثقيل، أكاد أختنق فى اللحم والعرق..

يقول لى ضاحكا: لا تقترب من "التخين" يا "بشروش" يقتلك.. اضربه وأنت بعيد.

الوحيد الذى "يزوغ" من باب المدرسة جهارا نهارا ولا يعترضه أحد

- قابلني يا "بشروش" عند "السيوفي"

يتجه "البشروش" نحو سور المدرسة الخلفى

يقول الزملاء: لا تتأخر يا "بشروش" عن حصة النصوص

يضع "السيوفي" كومة "السندويتشات" أمام "محمدون"

- كل يا "بشروش" لقد أكلتُ طعامك فى المدرسة

- الحمد لله

فى كل مرة يكثر "محمدون" من العزومة الصادقة، وفى كل مرة أيضا لا يأكل "البشروش".

سور مدرسة البنات الثانوية، يرفع رأسه لشباك مفتوح لا يقف فيه أحد، إنها جالسة بجوار هذا الشباك، يهبط الصمت الثقيل، يمسح خرزة توشك على الانفلات..

لماذا يخجل من تلك الدموع النافرة.. "العقاد" نفسه بكى من لوعة الحب، يرد على نفسه: "العقاد" أخذ قراره ثم بكى، لماذا لا تأخذ قرارا أيها الرجل ؟

يتمتم بكلمات "كامل الشناوي":

أحببتها وظننت أن بقلبها
نبضا كقلبى لا تقيده الضلوع
أحببتها فإذا بها قلب بلا نبض
سراب خادع ظمأ وجوع
فتركتها لكنَّ قلبى لم يزل طفلا
يعاوده الحنين إلى الرجوع
فإذا مررت وكم مررت ببيتها
تبكى الخطى منى وترتعد الدموع
سامحكم الله أيها "الرومانسيون" لقد أضعتم حياتى

يجأر بصوته فى الشارع الصامت الخالى: سراب خادع ظمأ وجوع.. سراب خادع ظمأ وجوع.

- أسرع يا "بشروش" أوشكت حصة النصوص على الانتهاء..

- حفر وهرش.. حفر وهرش

- تحرك ياأخى وأنت تتكلم، هذا تمثيل وليس حصة نصوص

- هذا الدور لا يلائمني، ثم إن المسرحية كلها سخيفة

- "ثورة الموتى" لا تعجبك ؟

- الموتى لايعرفون الثورة لا يثور إلا الأحياء يا أستاذ "شوقي"

- كفاك فلسفة وقل هذا للكاتب "الأمريكى إروين شو"

- "أمريكا" أيضا نريد أن نتنفس يا رجل

المخرج "شوقى نعمان" الأخ الكبير لزميلى وصديقى "محى الدين"، " شوقى نعمان ومحمود يس وسيد طليب وغيرهم، جيل مثقف جديد حمل راية المسرح البورسعيدى بعد جيل الرواد العظماء من أمثال " نصر الدين الغريب "

- لماذا يعاملنى أخوك هكذا يا "محي" ؟

ثم ما هذه الاختيارات الغريبة، العام الماضى " أهل الكهف" والآن "ثورة الموتى"

يضحك "محي" ويقول: لولا أنه يعمل حسابا لخاطرى لطردك من فريق التمثيل فأنت فى نظره غير موهوب ولا تسمع الكلام ولا أمل فيك .

معسكر الجلاء

- اذهب معه إنها القاهرة

- ابنك رجل يعرف كيف يتصرف

قبله أبوه قبل أن يتحرك القطار، أخرج ما في جيبه من الفكة ووضعها في يده: اشتر لنفسك مشروبا يا بني

بدا متماسكا وواثقا.

وجوه متفرقة في فضاء العربة الفسيح، بعض العوارض الخشبية منزوعة من الكراسي، أكثر من نافذة زجاجها محطم، الحصار الاقتصادي، ماذا يريد منا هؤلاء الناس ؟

يزداد الارتجاج كلما زادت سرعة القطار..

استند إلى حقيبته المتوسطة الحجم.. القديمة، يتحسس بصدره موضع النقود، عشرة جنيهات ورقة واحدة، خاطتها أمه في قميصه، فوق القلب تماما .

- حاسب من النشالين في مصر إنهم يسرقون "الكحل" من العين

- لا تتحسس النقود بيدك فيعرفوا مكانها

عاصفة من الغبار الأصفر الخانق، دهمتنا من الشبابيك المحطمة، دقائق وانفتح الباب الفاصل بين عربات القطار، وانشغلت المقاعد كلها، قال الجالس أمامه: افتح النافذة، لقد عبرنا المنطقة الرملية اللعينة، إنها الخبرة واعتياد السفر.. السفر هذا الوحش الذى ينهش القلب.. لقد سافر وهو فى بطن أمه إلى "السيد البدوي"..

وقفت أمام المقام وقالت: لو جاء ولدا سيكون "السيد" ويزورك ويبوس قدمك

يتذكر الجامع الكبير، والشحاذين، والدراويش يقدمون أيديهم للفلاحين يقبلونها، بعد أن يضعوا فى حجورهم العطايا، رأى موضع القدم الكبير خلف الزجاج

قال زوج عمته: كان طويلا مثل العون يذبح المائة من الكفار بضربة واحدة من سيفه الكبير

ثم يبتلع ريقه ويقول: رأيته بعينى رأسى اللتين سيأكلهما الدود يخرج من المقام ويمسك "الطوربيد" الألمانى فى الهواء ثم يضعه برفق بعيدا عن الجامع وبعيدا عن العمران..

يتذكر ألم أمه وأنينها من الصداع بعد ميلاد أخته الصغرى..

قالت عجوز من الجيران: اذهبى إلى "السيد البدوي".. العجيب

أنها تركت الصداع عند المقام وعادت محملة بأكياس "الحمصية" و"السمسمية" و"حب العزيز"..

في الليل، كنت أتعمد كسر الحصان الذى تحضره لى جدتى فى "مولد النبي" حتى آكله فى الصباح

- لماذا لا يبيعون "حب العزيز" فى "مولد النبي" يا أبى؟

- حب العزيز فى مولد "السيد البدوي"

- هل يستطيع "النبي" أن يشفى من الصداع؟

- اسكت يا ولد هذا حرام الشافى هو الله

- هل يسكن الله عند "السيد البدوي"؟

- اسكت يا ولد لا تتكلم هكذا هذا حرام حرام

يفيق على صوت بائع "الكازوزة"، تزداد قبضته انقباضا على نقود أبيه كلما زاد رنين الفتاحة على الزجاجات المغرية، إحساس يشبه الرغبة فى هرش الجلد هذه الرغبة فى أن يضع يده على موضع النقود، يعلل نفسه بالنظر من النافذة..

قال الذى بجواره: نحن الآن فى معسكرات الجلاء.. كانت للإنجليز قبل أن يطردهم "جمال عبد الناصر"

يتذكر "الجولف" والدراجة الرالى السوداء الكبيرة، وفتيات يانعات يلوحن له.. يرى وجها كبيرا بحجم نافذة القطار لفتاة جميلة يحبها ينفلت من بين أعمدة التليفونات الهاربة.

يخرج من نهر البشر المتزاحمين، ينفض الغبار عن وجهه وملابسه، يخبط قدميه فى الأرض على حافة الرصيف ناظرا إلى حذائه الجديد، ينزلق بصره إلى الشريط الحديدى اللامع وسط بقع الزيت السوداء، يتتبع الشريط بعينيه راجعا فى اتجاه المدينة، يدخل فى تلك الشبكة اللعينة من التحويلات، يرفع وجهه مخترقا هذا الهواء الساخن المملح..

مكتسية العوارض الحديدية فى هذا السقف العالي، بالغبار الرمادى الكثيف، صخب شديد، أصوات الباعة والمسافرين، مكبرات الصوت التى لا يفهم أحد كلامها..

سوق كبير هذه المحطة الحديدية الغبراء.

على باب الخروج من محطة مصر، يزفر زفرة شديدة، قبل أن ينزل هذه الدرجات القليلة، منزلقا فى فم هذا الوحش الخرافى.. القاهرة.

الجزء الثانى: الفرائس

جدلية الحياة والموت

تتكور المدينة، مثل صدفة عجيبة ينالها الماء من جميع أقطارها، ولكل ماء طبيعته وشخصيته ومذاقه ولونه..

فى الشمال يهيجُ البحر فيطؤها فى توحشٍ موجةً بعد موجةٍ مرغيا ومزبدا ودافقا وله شهيقٌ وزفيرٌ وخوار..

فإذا هَمَدَ وفترَ انحسر، مخلفا وراءهُ بركاً فضيةً تختلجُ فيها مخلوقاتٌ بحريةٌ مختنقة، تتراقصُ رقصةَ الموتِ فوق سطح الماء الغائض، فتلقفها مناقيرُ مشرعةٌ لنوارسَ محومة، وأشعةٌ أرجوانية تعكسها الأرضُ المبللة، وظل طويل لساقى نورسٍ عجوز، وقف منكمشاً على صدرِ قاربٍ مهجور، والقرصُ الأحمرُ الملتهب، يغرقُ حثيثاً فى الأزرقِ الهامد..

جدليةٌ للحياة والموتِ، وحضورِ العناصرِ، الماء، النارِ والهواء..

فى الشرق، المياهُ قاتمةٌ عميقةٌ وغادرةٌ وأقلُ رعونةً وطيشاً، تمخُرها بين الفينةِ والفينةِ سفينةٌ عملاقةٌ، تدفعُ الماءَ على صدرها، مخلفة

وراءها، خطين واهنين، واحدٌ يتجهُ ليضربَ حجرَ "ديليسبس" العتيد، ويتلاشى الآخر وقبل أن يصل إلى الضفة الأخرى البعيدة فى "بورفؤاد"، و قاب قوسين أو أدنى، "دلافينُ" تقهقهُ غافلةً، وسط الموت الحديدى الهادر، يخبطها "رفاصُ" السفينةِ العملاقة، فتموتُ بلا صوتٍ، أو يجرحُها، فتظلُ تولولُ إلى أن تموت..

من الغربِ والجنوبِ، تتقوسُ المدينة فى رحِمِ البحيرةِ الرؤوم، والقنالُ الداخلي، حبلٌ سُرّى، يمتدُ إلى خاصرتها، بماء، ليس كالماء..

مزيجٌ من ماء القناةِ القاتمِ الغادرِ ومن ماءِ البحيرةِ الأبيضِ الطاهرِ الرقراق، ومن زيوت "اللنشات" القديمةِ، التى تربضُ على الجانبين..

مدينةٌ طفلةٌ، تشبهنى وأشبهُها، تتمددُ فى جوانحي، و أسيحُ فى أبهائها، أفتحُ أبوابها المائة دفعةً واحدةً، فتبوحُ لى بأسرارها سراً وراء سر، أحوّم على أطرافها، كائناً بحريا، تكتمل به فيها دائرة الموتِ والحياة..

طيوٌر من كافة الأشكال والألوان والأحجام لا تخطئ مواسمَها، وأسماكٌ شهيةٌ حيةٌ قريبةُ التناولِ والمثول، و هواءٌ مصفى لا يشبهه أى هواء..

مدينةٌ عجيبةٌ ليس منها من لمْ تستبحْه دما وعظاما وروحا ولحما، و

ليس منها من لم يأخذها من أقطارها جميعا ويتحد بها..

مكان عبقرى يمتزجُ فيه التاريخُ بالجغرافيا، بالناس، بالحربِ، بالحبِ، و بالحياةِ، وبالموت .

المغربي

خاضت المدينةُ كلَّ الحروب، الإنجليز، الفرنسيين، الألمان.. واليهود، لم يبقَ بيتٌ إلا وفيه شظيةٌ هنا أوهناك إلا " المغربى "، هذا المقامُ فى أقصى غربِ المدينة، بعد "الجميل"، وقبته الخضراء.. هذا الغريبُ الغريق الذى تنسجُ حولهُ الأساطير، هذا القادمُ من جوف الماء..

دفنهُ الصيادون فى الأرض الجافة، بعيدا عن الماء، فى اليوم التالى وجدوه على هيئته الأولى، مُبللا بين الماء واليابسة، دفنوه فى مكانه، وأقاموا عليه المقام..

لم يغرقْ أحد فى حِمَى "المغربي" هذا الحارسُ المجهول..

رسوتُ فى القاع، أغمضتُ عيني، توقفتُ تماما عن التنفس، بدأ الضوءُ ينسحبُ رويدا رويدا، لم أشعرْ بأى ألم، فقط الصمتُ، والظلام الذى يزدادُ كثافة كلما أوغلتُ فى النفقِ الأسود، لم أكن خائفاً،إنها السكينةُ الشاملة..

حينما أخرجنى عمّى من الماء، وضعنى فى حِجر جدتي، كنت أرتجفُ من البرد.. بحثوا عنى فى الخلاءِ وعلى أطرافِ البحيرةِ وعند الكوبرى المكسور، لم يبحثوا عنى فى البحر..

قال عمى: وجدتهُ يتخبطُ بين أقدامي

قلتُ: سمعتُ صوتَ أبى فصحوت، أخذنى من يدى ورأيت الشمس تنزلُ إلى الماء

قالت جدتى: بركاتك يا مغربى

لفتنى أمى فى "البشكير" الكبير، ضمتنى إلى صدرها و هى تبكى و أنا أرتجف من البردُ..

قالت: لا تخبر أحدا

تشعلُ الشمعَ بنفسِها، توزعهُ فى أركان الضريح، وعلى رأسِ المقام المكسوّ بالقماشِ الأخضر الزاهي، والمكتوبِ عليه آياتٌ من القرآن الكريم.. لا تنسى أن تفعل ذلك فى كل مرة..

عندما تصبحُ الشمسُ فى المنتصفِ تقريبا، بين كبدِ السماءِ وخط الماءِ الغربي، يأتى الرجالُ، يأكلون، و يلعبون "الضامة" على الرمل الأبيضِ الناعمِ ، تكونُ ملابسُ النساءِ قد جَفتْ، لم تعد ملتصقة بأبدانهن الممتلئة، لا يبقى من أثرِ البحرِ سوى بياضِ الملحِ فوق

وجوههن الملتهبة، و على أذرعهن البضّة الساخنة، مثل رغيف "فينو" خرج توا من الفرن..

لا مشاكلَ لى مع الماء، أقف بجوار "كمونة" فى الخلاء، أنظرُ إلى خطِ الماءِ الدافق، نتنافس أينا أكبرُ " طرفا " وأغزرُ ماء، و أقوى دفقا، و أعمقُ حفرا فى الرمال.. ليت الأمرَ كان محصورا على الماء، أعودُ من المغربى دائما ببطن تتمزق.. لم أفعلها أبدا فى الخلاء، ولا مرةً واحدة فى حياتى..

قال "كمونة": أتخفف من حِمْلِى فى ماء البحر

أجرى وراءه وهو يضحك و يروغ، أقذفهُ بالرمالِ والأصدافِ وأنا أصيحُ:

– هذا القذرُ يلوث الماءَ الطاهر

تضحك النساءُ، يعجبن من غضبى و شدةِ انفعالي، تنظرُ أمى إلىّ فاهمةً و متعاطفة..

يقول خالى: كنا إذا انطبقت السماء على الأرض، وهاج البحرُ، وارتفع الموج، و حُجبت المدينة، نأوى إليه حتى تنقضى النوة .

النوة

فى حصة الرسم أخرج "نبيل الطيب" الحلقة المعدنية، ذات الأرقام والحروف الإنجليزية، وضعها فوق راحته فى زهو و قال:

- عندما تأتى إلى بيتنا، سترى الرأس، رأس جميل قمتُ بتحنيطه كل صيادى الطيور " حتى البارعين منهم " يحلمون بهذه الحلقة المعدنية النادرة..

كى تصطاد طائر "الواق" لا بد أن يكون لديك صبر "أيوب" و دهاء ثعلب، لا يكفى براعة التنشين.. يحلق عالياً فى السماء، جماعات مهاجرة، الدليل فى المقدمة، ينفرعُ وراءه الخطان الخافقان..

فى تواضع مصطنع يقول "نبيل الطيب": إنها مسألة حظ

هذا الماكر يعلم أنه لا دخل للحظ فى الأمر..

وضعت خطتي، خرجتُ "للجميل" فجراً، قبل أول ضوء كنت مختبئاً بين أنقاض الكوبرى المكسور، خّوضتُ فى الماء الضحل لمسافة طويلةٍ، موّهتُ موقعى جيدا، بقيت تحت الريح حتى لا يشمنى الطائرُ

فيجفل، قبعت ساكنا، عينى فى السماء جهة البحر أنتظر طائرى المستحيل..

أفقتُ، وطيورُ الحلم أمامي، فوق الأحجار البارزة فى الماء الضحل، وعلى قوائم الكوبرى المهدمة، من أيام "الستة والخمسين"، فى شموخ تقطعُ خط السماء.. شلتنى المفاجأة ُلثوان، استعدت ُرباطة جأشى واخترتُ طائري، بسرعةٍ أجريتُ حساباتي، إنه الأقربُ و الأنسبُ، الصدرُ فى مواجهتى أخذته علامة، ثم ارتفعتُ تدريجيا إلى الرأس، طيرٌ قويٌ إصابة ُالرأس فقط هى التى تسقطه فى مكانه..

القرصُالأحمرُ الملتهبُ، يكادُ يختفى فى الأزرق الذى صار معتما و داكنا ..

كتمتُ أنفاسي، وشددتُ عزمي، وأطلقتُ..

جَفلتِ الطيور مولولة فى الفضاء، تنثرُ الماء كأنهُ المطر..

خَفتَ هديرُها تدريجيا، قبل أن تنتظمَ خلفَ قائدِها فى اتجاه الجنوب..

بينى و بين طائرى هذه المسافة الوعرة الموحشةُ، لا بد أن أصل قبل أى وحش بريٍ آخر، فى المنطقة ذئابٌ وثعابين، فى النهار الأمرُ مختلفٌ، و لكنه الليل، والظلام الزاحف..

خوّضتُ فى الماء الذى ارتفع فجأة، أقوم وأقع بين الصخور التى

غمرتها المياه، عينى على طائري، قلبى يخفق بشدة، يقفز أمامي، شوقا إلى احتضانه..

أقبضُ حلمي، جسدا كبيراً ساخناً ومختلجًا، أخرجتُ مدينتى الكبيرة الحادة أرحته وانتبهت.. كتل الماء الأسود تتجمع مدمدمة، اقتربتْ السحبُ من رأسي، أكادُ أمسكها بيدي، سحب سوداء كثيفة تدلق الماء كفوهات القرب، البحر على مرمى بصرى حوائط عالية تهوى متفجرة على الصخور، شظايا الماء تشخب كالعويل، تسحبنى للهوة الفاغرة.. الزبدُ يفور والهواء الصامتُ يحتشدُ، إنها العاصفة "النوة الكبرى"، والليلُ الأسودُ و طائرى الخرافي، ولا شيء غير الماءِ المطبق من كل اتجاه، و القبة الخضراء تلوح ثم تختفي، مثل فنارة واجفة، و الصوت الذى يشبه صوت أبى..

الماء الأسود يرغى و يرتفع، سحبنى مثل جذع شجرة مجتث.. لفتنى الموجة العملاقة فى جوفها المعتم.. احتضنت طائرى وعلمت أنها النهاية..

رفعتنى الموجة العملاقة إلى قمتها ثم هوت بى متدحرجا أمام عتبة "المقام"، زحفت نحو الباب الخشبى الأبيض، فتحْته وارتميت، عبرتُ حاجز الزمان والمكان.. العبقُ الطاهرُ، والسكينة الكاملة، ضوءُ الشموع الآمنُ والدفءُ الحنون..

فى الصباح كان البحرُ طفلا وادعا يتمسحُ فى عتبة الباب الواهن،
والرملُ الأبيضُ المبتلُ، تلمعُ فيه هذه الكائناتُ البحريةُ المختلجة،
والنوارسُ تحوّمُ فى أسْراب زاعقة، والخيوطُ الذهبيةُ تنزلقُ على الماء
الذى عاد أزرقَ وديعا

صيد البحر

كان من الممكن أن أكون صيادا للسمك من هؤلاء الذين يَجرّون حبالَ الغزلَ بين البحر ورمل الشاطئ، لا يمكن أن أكون، من هؤلاء المعلمين بكروشهم المنتفخة، وأصابعِهم المليئةِ بالخواتمِ الذهبية ورزم النقودِ، يحملونها فى أيديهم مثل ربطة "الخس" المنفوش، ينتظرون الغزلَ لحظة خروجه من الماء، وخلفهم عرباتٌ خشبيةٌ تجرها الحميرُ تقفُ غير بعيد تنتظرُ الإشارة..

يزايدون على السمك، يعصرون الصيادَ الكبيرَ، صاحبَ المركب والغزل بين أنيابهم المفترسة، يسرقون عرق الناس ..

تنتهى الصفقة دائما وعيونُهم الجشعة يتقافز فيها الفرحُ القاسي، وعيونُ العجوز دائما حزينةٌ منكسرة، لا..لا يمكن أن أكون واحدا من هؤلاء اللصوص..

يفرحُ الصيادُ لحظة إفراغِ الغزلِ من حُمُولتهِ المترجرجة، يصلى على النبي، يعطى من حضر لحظة الفيض الإلهى، خاصة الأطفال،

يعرف أن ملكيته ستنتهي حالاً، فيمارسُ حقه الاستثنائي، تحت عيون التجار المتلمظة..

إذا بدأتِ المزايدة لا تقتربُ يدُه من كومة السمك .

جوبيا

البحيرة عالمٌ مختلفٌ و معقدٌ، أماكنُ محددة، "جزرٌ" و"مراحات" و"غابٌ" و" حِوَش"، أصحابها لا يعرفون البر ولا يخضعون لقانونه..

للبحيرة قانُونُها الخاص.. الموتُ هو الحارسُ الوحيدُ لهذه المساحات الواسعةِ وتلك الحدودِ التي لا يراها إلا أصحابُها.. سكان المراحات أقربُ إلى البدائية، فهم في وسط البحيرة منعزلون عن الأرض، جزءٌ من الطبيعة القاهرة..

وأنا الذي لا أعترفُ بحدود، لي كلُ الأرض، ولي كلُ الماء، وللناس مثلُ ما لي.. حينما تصطدمُ قدمي "بالجوبيا" أبتعد عن مواضِعِها، لم أفكرْ ولا مرةً واحدةً أن أفرغها في سبت الصيد، لم يمنعني قانونُهم الصارمُ الذي ظل مجهولا لي دهراً، يمنعني قانونُ أبي المحفور في أعماقي: خذ حقك ولا تعتدِ..

هؤلاء البشر العراة، نادرا ما يصادفهم "بفلايكهم" الصغيرة، يدخلون بين الغاب، يجمعون الأسماك و"يعسون" "الجوابي"، ألفوا

رؤيته في عرينهم المحرم، ينظرون إليه كما ينظرون إلى حيوان برى، لم أكن أعلم أننى تحت مراقبتهم الدقيقة حتى اطمأنوا.. مع الوقت لم يعودوا يثيرون انتباهى وهم يخبون فى الماء، بسيقانهم السمراء القوية، تتدلى بينها خراطيمهم التى تتخبط بين أفخاذهم، لم يتكلموا معى أبدا، يمرون بجوارى كما يمرون بصخرة ناتئة فى الماء، يتحدثون عبر فلايكهم الممتدة على مرمى البصر، مجالهم براح، لغتهم خبطات وصيحات وإشارات، عرفت فيما بعد، أن معهم نساءهم وبناتهم.. لم تقع عينى على واحدة منهن أبدا، لم أكن أعلم أن هذه الرؤية التى لم أسع لها، عقابها الموت، الموت.. القانون الذى يحكم المكان..

وكما يظهرون فجأة من بين الغاب يختفون، يظهرون فقط وقت "العَسّ" صباحاً، مبكراً قبل أول ضوء، ومساءً، مبكرا قبل آخر ضوء، يبدون كأشباح تتحرك فى غبشة الليل الواهن..

مرةً وحيدةً، اقترب واحدٌ منهم فى مثل سنى، يحمل " حنشانا " ضخماً يتلوى بين يديه القويتين المدربتين، وضعه بصعوبة فى سبت الصيد..

قال: خذه يدفئك فى هذا البرد القارص

لم أعد إلى المنزل بغير هذا الثعبان الكبير، كان الماء يومها شديد البرودة وصافيا كالمرآة، كنت أرى القاع الخالى من السمك..

يومها نظر أبى فى عينى، قلت له الحكاية، ربّت على كتفى وقد اطمـــأن، هذا "الحنشان " الضخم له قوة الحصان وهو فى الماء، لا تصطاده غابة صغيرة أو كبيرة، يومها طبخته أمى "مدفونا" فى الأرز البنى..

لا يزال طعمه الدسم عالقا فى فمي، أتذكره دائما فى أيام البرد الشديد .

أبو يوسف

يترك الصيادون " فلايكهم " على شط البحيرة، يربطونها فى أوتاد كبيرة مغروسة فى الطين، إلا "أبو يوسف"، يحمل قاربه الضخم بين ذراعيه كما يحمل الطفل الصغير، يضعه على عارضة ذات عجلتين كبيرتين، يدفعه أمامه مثل عربة المدفع، وعندما يصل إلى بيته فى "الحرية" يفرد الغزل بين عودين سميكين من "البامبو"، يرتق ما تمزق، ثم يتركه ليجف فى شمس الشتاء الحنون..

يقوم، يقلب الفلوكة على وجهها ويدخل إلى حديقة البيت، يحضر الخشب وعلبة "الغراء" وعلبة "القار" وعلبة "البوية"، يضع علبة الغراء فوق النار، ثم يبدأ فى ترميم ما يحتاج إلى ترميم .

كانت شمس " الحرية " فى ذلك الزمان عفية طازجة تملأ المكان بالدفء و النور، و كانت الشوارع واسعة و الناس قليلة.

بعد أن قتل" اليهود ولده " مصطفى" فى " ستة وخمسين " فى " سيناء" ناداه الناس بأبى "يوسف " حتى لا يقلبوا عليه المواجع،

قال بعض من كانوا مع "مصطفى" فى الأسر قال "اليهودي" : لا تنظر إلىّ هكذا أبعد عينيك عنى ثم أفرغ مدفعه فى صدره وظل يصرخ فى جنون .

أعطى الله أبا"يوسف" بسطة فى الجسم، ورثها ابناه "يوسف" و"حسن"، العينان النفاذتان، والصدر العريض، وهذه النقطة الغائرة فى منتصف الذقن، مثل نقطة "كيرك دوجلاس" تماما، وذراعان من الفولاذ..

نجلس بجواره، نرتاح من لعب الكرة، أنا و" كمونة" و" حسن" ..

يقول: ماذا تريد أن تكون عندما تكبر؟

أقول له فى كل مرة : أريد أن أسافر مثل " يوسف " و أركب البحر الكبير

يضحك و يضمنى إلى صدره فى سعادة..

وفى كل مرة أيضا يقول "حسن ": أريد أن أصبح جنديا فى حرس الحدود

يظهرون على شاطئ البحر بعد الغروب، يمنعون الناس عن البحر بالليل، بالزى الكاكى النظيف والبندقية على الكتف، يذرعون الشاطئ جيئة وذهاباً، منظرهم يأخذ الألباب والقلوب، والشمس تعكس ظلهم الممتد على الرمل المبلول، حتى ليبدوَ الواحدُ منهم فى طول " العون" .

أما " كمونة " فيقول: أريد أن أصبح غنياً، ولا يزيد،

يضحك أبو "يوسف" و يقول: يا خوفى منك و عليك يا " كمونة" .

يوسف الغيطانى .

يأتى بلا ميعاد، ترتبط زيارته بصدفة عبور الباخرة التى يعمل عليها للقناة، أحيانا كل شهر أو شهرين و أحيانا يمر العام دون أن نراه، يعرفه عمال الرباط، يربطون سفينته فى "الغاطس" لتنتظر دورها فى العبور ثم يأتون به معهم فى "البلوط "إلى بورسعيد، يبقى ساعات وأحيانا أياما يكون فيها ملء السمع والبصر بجسده الرشيق ووجهه الحليق وشعره البنى اللامع وملابسه الأنيقة، فى الصيف القمصان الخفيفة الفاخرة بألوانها الفاتحة، فى الشتاء البلوفر الصوف الأسود أو البنى أو الأحمر الفاقع والجاكيت الجلد الثمين، لا يلبس أحد فى بورسعيد مثل" يوسف الغيطانى "، يجلس عن يمين أبيه، و بجواره، لجلس، أنا و" كمونة ".

يحكى لنا عن الدنيا الواسعة التى يجوبها شمالا و جنوبا، عن الموانى الهائلة "هونج كونج" " دلهى" "سنغافورة" "جنوه" "نيويورك" و "طوكيو"، وعن الناس المختلفين وعاداتهم، يرسم دائرة فى الهواء

بكفيه ويقول: بورسعيد نقطة صغيرة فى هذا الكون الكبير

أقول فى غضب: بورسعيد أم الدنيا

يقول: أم صغيرة مثل أم "الأسكة"

أقول فى سرى: بل مثل "أمى" طولا وعرضا وبهاء

لا يتكلم عن النساء أمام أبيه الذى يقول له دائما: إياك والحرام يا "يوسف" "النسوان و الخمرة"، ليس لك فى الغربة إلا ذراعك و ربنا فلا تغضبه

يضحك "يوسف" ضحكة صافية مجلجلة ويقول لأبيه مشاكسا: الدنيا تتطور يا "أبو يوسف" سأحضر لك "موتورا" لقاربك فى زيارتى القادمة

يقول أبو"يوسف" وهو يتصنع الامتعاض: أنا لا أحتاج موتورا، الموتور لأمثالكم أيها الكسالى

فى الصباح يلعب الكرة مع الصغار وفى العصر يلعب "اللجم" مع الكبار يقول هذه اللعبة أمريكية اسمها "البيسبول" و يحبها الأمريكان بشدة، لم يصدقونى عندما أخبرتهم أننا نلعبها فى "بورسعيد"، فى المساء يرقص فى "الضمّة" رقصا لا مثيل له يضربون به المثل، يقولون: فلان يرقص ولا "يوسف الغيطانى".

يحضر معه فى كل مرة علب الفاكهة التى نعرفها والتى لا نعرفها،

"الأناناس" و "الخوخ" و"الكريز" و"الكمثرى" وكذلك "الكافيار"، يحضر أيضا علب اللحم الخاص بالكلاب يعطيها "للأسكى".

يقول الناس: "الأسكى" يأكل طعام كلبه

عضه مرة فخرج يجرى بعرجته والكلب معلق فى قدمه السليمة.

يحكى لنا "يوسف" عن البحار الكبيرة يقول: بحرنا بالنسبة لها بحيرة صغيرة والمحيط شيء مهول لا أول له ولا آخر، عندما يهيج تكون أمواجه كالجبال.

يحكى عن بلاد حرها شديد مثل جهنم، وبلاد كلها ثلج.. فوق الشجر وعلى أسطح البيوت وعلى الإسفلت، لو شافها (دنجل) بياع الثلج ينهبل.

على يسار"أبو يوسف" يجلس "حسن" صامتا مثل أبى الهول، يحترمه الكبار ويهابه الصغار يسمونه "حسن الأسد".

يقول"أبو يوسف": أنت مثل "يوسف" و "حسن" مثل "كمونه" قبل أن ينفلت عياره

حينما يرتفع صراخ الجدة " لكمونة" يقول لها: مفيش فايدة يا "أم الدسوقي" عليه العوض

عندما قاطع العمال العرب السفن الأمريكية، كانت " سفينة " " يوسف " فى " نيويورك" ومنها جاء خبره.

قالت الرسالة: مات فى مشاجرة مع ثلاثة من " اليهود"

صاح " حسن ": غدروه.. " يوسف " لا يموت فى مشاجرة مع عشرين رجلا

ربط أبو" يوسف " قاربه فى وتد كبيرعلى شط البحيرة وجلس أمام بيته، يتكلم مع " يوسف " يوبخه أحيانا، وأحيانا يضحك معه، وأحيانا يقول: أنا السبب حذرتك منَ "الخمرة" ومن "النسوان" نسيت أحذرك من "اليهود"

وفى كبد الليل تخرج صرخته مثل أسد جريح: غدروك يا ولدى أنت "فين" يا "يوسف".. ساعتها تملأ الدموع كل بيت فى "الحرية".

الأسكى

جلست "أم الدسوقي" أمام بيتها فى الصباح، نظرت إلى الناس كأنها تراهم لأول مرة، الناس لم يعودوا هم الناس، هى أيضا لم تعد هي، أصبحت عجوزا و ثقل الحمل عليها، عندما ماتت "فاطمة" وهى تلد "كمونة" تشاءم الناس من الولد حتى أباه تركه، خرج و لم ينطق بكلمة واحدة، كانت ابنتها "خضرة" مخطوبة لرجل ثقيل لا تحبه رفضت "أم الدسوقي" فسخ الخطبة، اختلف الأمر بعد موت "فاطمة" و كان أبو "كمونة" رجلا طيبا قبلته "أم الدسوقي" حرصا على مصلحة اليتيم، ولكن تقدّرون و تضحك الأقدار، رفض العريس والعروس الطفل، هى لا تنكر أنها سعدت بذلك فقد تعلقت به بشدة فهو ولد الولد كما يقولون خاصة و أنه أعاد إليها أمومتها الضائعة، أسال اللبن من صدرها العاجف، لبنا غزيرا مشبعاً، قدرٌ من السماء وهى المؤمنة تقبلت قدر الله، و لكن الآن وقد وهن منها العظم و كثرت مشاكله فى الشارع ومع الجيران أصبح الأمر فوق طاقتها.

- صباح الخير يا "أم الدسوقي"

- صبحك الله بالخير، مالك ؟

- الكلب يا "أم الدسوقي"

- ماله

- حاله أصبح عجب

ضحكت "أم الدسوقي"، أمس جرى الكلب وراء صاحبه بطول الحرية و عرضها و الناس تضحك ولا أحد يحوش، يقولون: "الأسكى" يأكل طعام كلبه

قال "الأسكى": قبل يومين من وصول خبر "يوسف" جن الكلب وقف فى الليل يعوى، لم أستطع النوم وخفت من الجيران فضربته بالعصى فهجم عليّ، أصبحت أخاف منه و لم يعد يسمع الكلام، أجرى و هو ورائى و الناس تضحك، يقول "كمونه" ضع له السم فى الطعام، قلبى لا يطاوعنى يا حاجة، قلبى لا يطاوعني، الليلة ظل يعوى طول الليل ألطف يا رب ألطف يا لطيف..

يتشاءم "الأسكى" من عواء الكلاب رغم حبه الشديد لها..

يقول: عواء الكلاب أنواع، ولكن هذا العواء يا حاجة لايخيب أبدا، سمعته يوم حريقة المناخ الكبيرة ويوم أن داست الدبابة الإنجليزية على قدمى فى العدوان الثلاثي، وقبل وصول خبر "يوسف"، ألطف يالطيف، ألطف يا لطيف.

مضى "الأسكى" و ازدادت حيرة العجوز، ما زال قلبها منقبضا، قامت و توضأت، تصلى من قلبها، أطالت السجود، سالت دموعها على السجادة و أكثرت من الدعاء.

سينما الأهلى

اليوم عيد الجلاء، استيقظت مبكرا، قليلا ما يزورنا "كمونة" فى الصباح،

قال بعد أن تناولنا الفطور: تعال معى إلى "سينما الأهلى" فيها فيلم جميل،

قلت: اتفقت مع عمى أن نذهب إلى "سينما الشرق" فى المساء،

قال "كمونة": تعال معى الحفلة صباحية

فيلم عربى لا أتذكره ثم فيلم "لطرزان" والفيلم الثالث "لاستيوارت جرانجر" اسمه "سيف لانسلوت".. فيلم "رومانسي" عن الحب والواجب فى عالم الفرسان .

خرج الأطفال من السينما وقد أمسك بعضهم بجريد الأقفاص يتبارزون فى الشوارع، ذهبت إلى محلنا فى شارع "كسرى" لم أجد أبي، على الطاولة الرخامية ترقد سكاكين الحلوى الطويلة، بدون كلام أمسك "كمونة" واحدة وأمسكت أخرى و ظللنا نتبارز، دافعت

عن نفسي ببراعة و "كمونة" يصرخ و يحاصرنى فى الركن و عيناه تقدحان شررا، لو شيءت أن أجرحه لجرحته كنت فقط أدافع عن حياتى باستماتة، و لولا أن دخل أبى و فى يده عصا كبيرة لحدثت كارثة لا يعلم مداها إلا الله، لم أترك سيفى إلا بعد أن خرج "كمونة" من المحل وهو يجرى كالمجنون.

قال أبى: لا تمشِ مع هذا الولد بعد الآن

لم يصدق القاضى أن هذا الصبى البريء الواقف أمامه، قام وحده بهذه المجزرة، ولكنه أمام القرائن والشهود حكم عليه بالسجن شهرين مع التنفيذ.. رغم توسلات المحامى أن يوقف التنفيذ حرصا على مستقبله، خرج العفريت المحبوس، أصبح "كمونة" عبئا ثقيلا على الشارع،

قال الناس: لولا العجوز لأحرقنا عليه المنزل

قبل هذه الحادثة كان يقفز إلى حدائق الجيران، يتلصص على نسائهم، وينزو على حيواناتهم، الآن أصبح الجميع مهددا.

قال لى مرة: ليس لى فى الدنيا نصير سوى هذا وأشار إلى ذراعه، و هذا و أشار إلى ما بين فخذيه، ثم نظر إلى الأرض فى خجل وأضاف وأنت والعجوز

قلت لها: كمونة يحبك.. حرام عليكِ.. الرجل يكاد يموت هما.

قالت: صدقنى "كمونة" الذى تعرف مات، أرى الآن شخصا آخر يملؤنى رعبا، لو أرغمنى أخى على الزواج منه لقتلت نفسى.

أخوها "حسن" الأسد.. الوحيد فى الشارع الذى يهابه "كمونه" ويعمل له ألف حساب،

يبكى "كمونة" ويقول: كل شىء إلا "صباح" هى حياتى ونور عيني، كيف تخاف منى؟ إننى أخاف عليها من الهواء الذى تتنفسه.

القطب

"المتولي" أصغر أخوالي، يناديه الناس "بالقطب"، يعمل فى الموانى والمنائر، يتنقل بين جزر البحر الأحمر الكثيرة، قبطان السفينة التى تحمل المؤن والرسائل لحراس المنارات، يغيب بالشهور، أعرف مقدمه عندما أرى القواقع الكبيرة والصدفات الغريبة تملأ البيت، أمسك القوقعة من طرفيها المدببين، ليس فى بحرنا قواقع بهذا الحجم، أرفعها إلى أذني، أسمع هدير البحر، هذا الهدير يختلف عن هدير قواقعنا، أنزلق على حافتها الملساء، تسحبنى أذنى إلى عالم البحر الأحمر الغريب، لم أره ولكننى أعرف عنه الكثير من قصص ومغامرات هذا الخال "السندباد".

يصنع من القواقع تحفا رائعة، "أباجورات"، تماثيل، يقطع فيها ويعدل أشكالها، أحيانا يستخدمها كاملة مع قليل من التحوير، أصداف من كل لون وشكل، قطع من المرجان الملون، عالم رائع من الفن الرباني، يصنع أيضا من الخشب سفنا صغيرة ذات أشرعة،

غاية فى الدقة والكمال، يظنها من يراها، قادمة من عالم " جاليفر" المسخوط، كنت أتعجب وقتها كيف أستطاع أن يدخلها فى تلك الزجاجات البللورية الجميلة .

يقول وهو يضحك: سحر.. ألا تعرف أننى ساحر؟

الستائر البيضاء الشفافة مسدلة فوق الشبابيك، حجرة خالى مغلقة كى لا يدخلها الذباب، و جدتى تحرس الصمت حتى لا يقوم غاضبا، يتحمل "كمونة" هذه الأيام القليلة على مضض، يكره هذا الخال الصريح مثل البحر.

- اسمع يا بنى أنت تأكل من طعام هذه العجوز، اذهب إلى أبيك هو أولى بك

يكره خالى ويخشاه.

فى كل مرة يعطى خالى أمى منديلا، فيه بعض اللآلئ الصغيرة، تضعها فى صندوق خشبى مصدف، كان يربى اللؤلؤ فى جزر البحر الأحمر، بعد عدة زيارات، يأخذ الصندوق ويسافر إلى القاهرة.

تقول جدتى: "القطب" مرزوق من يومه، إذا أمسك التراب يتحول فى يديه إلى ذهب

قالت أمى: اتق الله فى "كمونة".. اتق الله فى اليتيم يا أخى

قال: صدقينى إننى أرى الموت فى نظرته.. إنه قاتلى و قاتل

العجوز . . العجوز تربى الموت فى بيتها

عندما هاجم اليهود جزيرة "شدوان" بقى مع الرجال

قال مساعده : قفز الريس "متولي" إلى الماء وسط الرصاص، عاد إلى الجزيرة من الجهة الأخرى رأيته يصعد التبة العلوية، أزاح الشهيد "محمود"، أمسك الرشاش الثقيل بين يديه، وانهمر الرصاص كالمطر، قتل كل اليهود على المنحدر، كانوا يفرون من أمامه كمن يرون عفريتا.

نوح الحمام

يضحك من قلبه فى سعادة وهو يحتضن الدنيسة الفضية وهى لا تزال عالقة فى السنارة، يحادثها كما كنا نفعل ونحن صغارا: "تعاليلى يا بطة يا أم قتب".. تعالى تعالى.. يصبر عليها حتى يهدأ اضطرابها فى صدره، ثم ينزع السنارة من فمها المسلح قبل أن يضعها فى سبت الصيد، نجلس على الحجر الأصفر عند الكيلو "18 "جنوب المدينة، نأكل ونضحك، ننظر إلى السفن العابرة.

- هذه سفينة ركاب

- تلك ناقلة بترول.. تذهب إلى الجنوب فارغة و تعود محملة بثروة العرب المنهوبة.

- ليست فارغة تماما يملأون "التنكات" بالماء العذب.. هى ذاهبة إلى حيث نقطة الماء أغلى من نقطة البترول

- لا بد من ملء التنكات حتى تتوازن السفينة ولا تنقلب.. يملأونها من ماء البحر عند الضرورة

يمسك بحصاة صغيرة يلقيها على فأر أطل من بين أحجار الشاطئ المتآكلة

- تعرف كنت أدعو الله وأنا صغير أن أظل صغيرا إلى الأبد.. كنت أعرف ما ينتظرنى وأخاف منه

لحظه من لحظات الصفاء التى أحس فيها أننا أخوان حقيقيان

- لم يجبرك أحد على فعل ما فعلت

- أنت تقول ذلك.. لو كنت مكانى لتغير الحال

أحبه مثل آخى.. لو كان لى أخ شقيق ما أحببته مثل ما أحببت كمونة، هو يعلم ذلك، يتعامل معه الجميع بحساسية الولد اليتيم إلا أنا، أتعامل معه بتلقائية الأخ لأخيه، ربما لم تكن نظرته لى على نفس المستوى، أقدر ظروفه وأعذره.. دائما كنت أجد له العذر.

قال: أبوك يرميك وهو حى.. خالتك زوجة أبيك ترفض أن تضعك مع إخوتك.. خالك الذى تأكل من طبقه يذكرك كل يوم أنك تسرقه، وأنا صغير كانت العجوز تحمينى.. يوم الحادثة ذهبت إلى الفرح، وقفت فى حلقة "الضمة"، صوت "السلك" الشجي، وصوت المغنى الرخيم.. كان يغنى "نوح الحمام"، والعريس و العروس، وشاب نحيف يرقص، يقلد "يوسف الغيطاني" ولكن "هو

فين و يوسف فين"، وهواء الصيف يبهج النفوس إلا نفسي، كنت أفكر في مستقبلى.. أنا لا أحلم أبعد من المدرسة المهنية التى بناها "عبد الناصر" فى الحى الفقير، طموحى أكبرمن ذلك و لكن عينى بصيرة و يد العجوز قصيرة، كنت أحلم بوظيفة سريعة حتى أتزوج "صباح"، وتصبح لى حياة مستقلة، بعيدا عن خالك ونكده.. أنا أختلف عنك أنت تعيش فى حضن أمك وأبيك

"أول مرة أراه يتيما، عيناه تجهدان أن تبتلعا دمعهما الساخن"

- فى هذا الوقت بالذات وقعت اللطمة على قفاي، استخفهم الحشيش فاستضعفوني، قاومتهم غلبوني، قهرونى بكثرتهم والناس تتفرج، هؤلاء الجيران الكلاب، لو كنت ابنا لواحد منهم لقامت الدنيا ولم تقعد.. دخلت إلى المنزل مجرحا ومهانا، العجوز نائمة، مجرد عجوز ضعيفة تثير الشفقة، خجلت أن أوقظها لأشكو لها.. وقعت عينى على السكين الكبير، يشبه السكين الذى تبارزنا به أنا وأنت فى الصباح، هل تذكر ؟

عدت إلى الفرح لأسترد كرامتي، وحدى وبذراعى ضد هذا الكون الظالم، تمنيت وقتها أن تكون فى يدى قنبلة أنسف بها الجميع، صدقنى كنت مدفوعا بقوة أكبر مني، ربما هى قوة الحياة، أو ربما هى قوة الموت،

لا فرق ثم من يستطيع إيقاف حجر يتدحرج من قمة الجبل

ثم نظر إلى الرمل تحت قدميه و قال: لا تصدقنى إذا قلت لك إننى لم أعتدِ على امرأة فى حياتى.. يطاردنني، هؤلاء النسوة الملاعين.

باندونج

كنا صغارا والهواء متوقف فى البحيرة، والقلوع خاوية ومرخية، والحر، والرطوبة تنز عرقا على لحمنا الساخن، غلبنا النوم، نزلنا إلى جوف المركب، النسوة الفلاحات، وأقفاص الدواجن الفارغة، يأتين بها ممتلئة ويعدن بها خاوية، يجلبن للمدينة خير الريف عسل النحل، السريس، الحميض، الجعضيض، الجبن القريش، الزبدة، البيض، البط، الأرانب، الفراخ الفلاحى. .العتائق والبرابر.

يضعن رؤوسهن على أى شىء ويرحن فى سبات عميق كأنه الموت.

فى المدينة ينمن فى الشوارع على الأرصفة، نوما خفيفا متقطعا بجوار أقفاصهن، فى جماعات صغيرة طلبا للدفء وللأمان .

يملأن المدينة فى المواسم والأعياد، فى رأس السنة يجلبن للخواجات الديوك الرومى. . يجلبن أيضا الخادمات الصغيرات.

يحلقن عند "باندونج" الحلاق قبل الحمام. . لا بد أن تسلم

الفتاة سليمة ونظيفة لسيدتها فى حى "الإفرنج".. فتيات نحيفات، صدورهن فى حجم الخوخة الصغيرة، ينتظرن فى خضوع بجوار باب المحل، يمسك الحلاق الخبير الرأس الضعيفة كما يقبض على جوزة هند صغيرة، يمسح شعرها بالموسى، تخرج من تحت يده صلعاء بيضاء لا تسر الناظرين، تدوس تاجها بقدميها الحافيتين، لا يتركها إلا بعد أن يمسح رأسها بالجاز، ليقضى على كل أثر "للقمل" و"الصئبان"، يتغير شكلها إلا عينيها المرتاعتين، مومياوات عجفاوات خرجن توا من تابوت فرعونى قديم، لا يدرى من ينظر إليهن إن كن ذكرانا أم إناثا، يتابعهن "باندولج" بنظره مثل كاهن فرعونى حكيم يدرك خطورة ما يفعل، يعرف تأثير هذه النقلة الجسدية الكبيرة، على تلك الأرواح الغضة المتكسرة، يغسل يديه ويطهرها "بالديتول" قبل أن يجففها فى فوطة قديمة متقرحة، يبدو مثل طبيب ماهر قام بعملية جراحية ناجحة، ينظر إلى نفسه فى المرآة وجهه متورد وفخور.

تمشى القروية العجوز بردائها الأسود السابغ وخلفها هذه المخلوقات التى شكلها "باندولج"، "نعاج" صغيرة تساق للذبح على مذبح الفقر، يذهبن إلى "الإنكلستوما" يتجرعن شربة الدود شديدة المرارة.

عائدات إلى قراهن، النسبة الغالبة من العجائز، تبقى النساء

المسافرات على سطح السفينة فى جماعات، لاينزل إلى القاع سوى هؤلاء النسوة المرهقات والأطفال .

اليد الخشنة المدربة تعبث بي، صحوت وناديت أمي، أحضرت الماء، شربت وعدت ثانيا إلى النوم.. تكورت على نفسى وأنا أضع وجهى فى الألواح الخشبية المقعرة، بقى كمونة فى مكانه وسط هذا اللحم المكدود.

فى الصباح تمد المرأة يدها بالرغيف الأحمر: خذ يا ضنايا أمك تقول أنك تحب "العجوزة"

- لا أحب "العجوزة"

- تحب الجبنة أم العسل ؟

- لا أريد شيئا

ربما تلك اليد الممدودة هى العابثة بى فى الليل،

تقلب المرأة نظرها بينى وبين كمونة الذى يأكل فى صمت .

فتاة يافعة جلست بعيدا ترقبنا بعينين، ترك الشقاء بصمته الواضحة فيهما، ما حدث بالليل ضاع مثل حجر سقط فى البحر، لم أتذكره إلا الآن.

قلت له وأنا أضحك: هل تذكر زوجة مصباح اللبان ؟

تجهم وجه "كمونة" وقال: الله يسامحها، هى الآن فى المكان الوحيد الذى يملأ عينيها الفارغتين.

فرحة

نتنافس أنا و "كمونة" فى كل شىء.. ركوب الدراجات، لعب الكره، "البلى"، "السويسية"، أغلبه فى أشياء ويغلبنى فى أخرى.

يفتخر "كمونة" بسبقه مع النساء، مع الوقت بدأ يحزن لانصراف الفتيات عنه، يقمن من المجلس إذا حضر.

قالت زينب: لا نحب نظرته القبيحة

فى الواقع نظرُ "كمونة" ضعيف، وهو فى الأصل خجول، أكثر ما ينظر إلى الأرض، ولكنه الوهم، وهذه الشهرة الفاشية بين النساء، خاصة بعد حكاية" فرحة" زوجة "مصباح" بائع اللبن، أتى بها من الريف بعد موت زوجته التى لم تترك له عقبا، أحضرها بابنتها الصبية.. يُحضِر الرجالُ فى مثل ظروف "مصباح" فتيات أبكارا، يفرحن بالقدوم إلى" البُلط "، لا ندرى ما الذى دفع "مصباح" إلى فعل ذلك، صحيح" فرحة" جميلة مثل خوخة ناضجة وصغيرة السن لا نكاد نفرقها عن ابنتها، ولكن الزواج قسمة ونصيب كما تقول "أم الدسوقي".

تعّود "كمونة" أن يكون محلا للعطف المبالغ فيه من النساء، يترحمن على أمه ويشبعنه أحضانا وتقبيلا، بعذ أن أصبح صبيا يافعا قلّ حدوث ذلك خاصة أمام العجوز، وبعد أن بدأ الصبى يتذوق القبلات والضم.

يحكى لى عن خبث النساء، خاصة الأرامل والمطلقات، قال: عندما قبلتنى "فرحة"، أحسست أن وجهى اشتعلت فيه النار

كلما رأته قبلته، فى أى مكان وفى أية مناسبة، عشقتْ "فرحة" الفتى "كمونة"، أشاعتْ أنه تكلم مع "مصباح" عن ابنتها حتى تبرر دخوله وخروجه من بيتها، نفى "كمونة" هذه الإشاعة، الكل يعرف حبه "لصباح" أخت "الأسد".. نفور "صباح" المفاجئ من "كمونة" جعل لشائعة "فرحة" يدين ورجلين.

قال "لفرحة": أنا أمْ "مصباح"

قالت: أين أنت منه "مصباح" رجل "ملو هدومه".. أنت عيل

ثم تنهدت وقبلته وقالت: ولكن القلب وما يريد

فى إحدى المرات أقبل "كمونة" مبتهجا قال: لبدْتُ "لمصباح" حتى رأيته يبول فى الخرابة، جريت نحوه ورأيت شيئه، صغيرا مثل قرن "الفول الحرادي"، يضحك "كمونة" ويقول: الكدابة بنت الكلب

أصيبت "فرحة" فى حادثة سيارة، قطعوا ساقيها حتى تعيش، هجرها "كمونة"، لم يدْرِ العام إلا وجاء أهلها.. أخذوها معهم ليدفنوها فى قريتها.

صيف حار

الصيف أجمل الوقت، فيه تمتلئ المدينة بالأغراب، فيه أيضاً النساء يكشفن كنوزهن التى ظلت مختبئة في الشتاء تحت ملابسهن الثقيلة الظالمة.

يعطينى أبى افضل ما ينتج من "البقلاوة"، الأكبر حجماً والأجمل شكلاً، يسقيها بالسمن البلدى الساخن لحظة خروجها من فرن "عزت" يحمر وجهها فى الحال، يسقيها بالعسل الأبيض الشفاف فتظل تشرب حتى يخفت هسيسها.

لحظة وصولى إلى الشاطئ تتزاحم الأيدى، انتهى فى دقائق

قلت لأبى: أعطنى أكثر

قال: بارك الله فيما رزق، بالقليل يسعون إليك، بالكثير يزهدون، فتسعى أنت إليهم.. وتفقد من نفسك

نخلع ملابسنا، نتسابق إلى البحر أنا "بالشورت" الذى صنعته أمى من بنطلونى القديم، قصت أرجله من فوق الركبة، جعلت له حافة

مثنية مستوية وكأنه مصمم أصلاً للماء، و "كمونة" بلباسه الكتان الفضفاض، نخرج مبللين تتناثر القطرات حولنا من شعرنا وجسدنا الساخن، نداري أعضاءنا التي شكلها الماء تحت القماش المبتل، نتوارى خلف أي حائط في مواجهة الشمس، ننتظر قليلاً حتى نجف ثم نرتدي ملابسنا ونمضي.

قالت المرأة بصوت كالفحيح، .وهي تنظر إلى لحمنا البرونزي وأجزائنا البارزة التي أنعشتها حرارة الشمس وسخونة الملح: أدخلا لتغسلا جسديكما بالماء العذب.. أنا وحدي

امرأة بيضاء، في آخر الشباب، اعتذرنا ومضينا

قال "كمونة": نسيت شيئاً ربما وقع في الرمل، اذهب أنت وسألحق بك

.. صعدت الدرجات القليلة التي تؤدي إلى البلكونة المفتوحة على البحر، من بين فتحات الشيش المغلق "كمونة" عاريا يصهل والمرأة تحته، كتلة من اللحم الأبيض الفاره، تعجبت وقتها كيف لهذا الجسدالصبي يسبغ سطوته على هذا الجسد الأنثوي الكبير؟ تتنقل كفاه بسرعة واضطراب بين الصدر والبطن والوركين، يتخبط مثل غريق سقط في بركة من اللبن، كفاه تتبدلان في تشنج واضطراب، يكبش في اللحم ويتحشرج والمرأة تقوده، تمكنه في غنج ونشوة وهو يعلو ويهبط عنيفا ومتوحشا.

دخلت بيتنا لم أنظر فى عينى أحد، اتجهت إلى الحمام مباشرة، بقيت تحت الماء فترة طويلة أطفئ جسدى بالماء الطاهر.. أغسل أثر الملح والنجاسة.

كلوت بك

ما إن غادر الرجل الغرفة حتى سقط بجوار حقيبته، نظر إلى الباب المفتوح ثم مدد رجليه، أسند رأسه إلى الحائط الجيرى خلفه، ثلاثة أيام، أطول ثلاثة أيام فى التاريخ، وما رأى مختلف تماما عما سمع، فهذه قهوة "الجعافرة" فى شارع "كلوت بك"، لم يرَ فيها ذلك النصاب الذى حذروه كثيرا منه، فقط هذا الصعيدى الشاب برقبته الطويلة وعمامته الناصعة، يشبه تماما ذلك الصعيدى العجوز المعلق فوق رأسه فى إطاره العتيق، نفس الأنف الضخم والعينين النفاذتين إلا أن شارب العجوز فيه بدائية و ضراوة.

– الحساب بعدين أنت اليوم ضيفنا

كيف عرف أننى غريب؟ لا بد أن يعرف أى انسان أننى غريب، هذه الحقيبة المرهقة، وهذا الانطواء والتوجس، وذلك الاندهاش الحذر، و العينان الثقيلتان.. لا يحتاج الأمر لفراسة من أى نوع .

– "كلوت" بك طبيب إنجليزى

قال الشاب النحيل لزميله فى الطاولة المجاورة

أه يا "سعد" كم من الخرافات عن القاهرة ملأت بها رأسى؟

ذكر "سعد" سببا أخر لتسمية الشارع.. سببا له علاقة بملابس المرأة الداخلية.

قال: هذا الشارع تمارس فيه النساء أقدم مهنة فى التاريخ

بعد أن ضبطه أصحاب البيت يقبل ابنتهم فى الحوش المظلم، خلف ورشة عمى "أحمد" فر "سعد" إلى القاهرة.. ولد جميل وسط اخوة عجاف.. شعر أصفر، عينان خضراوان فى وجه أبيض كالحليب،

أمه نحيلة سمراء فمها ضاحك على الدوام.

تجلس على "البسطة" الكبيرة أمام باب بيتنا المفتوح

تقول: آخذ نفسى الأول، هنا "طراوة"

فى كل مرة تفعل ذلك وعلى صوتها تتجمع النساء من بيدها ثوم أو أرز، يجلسن بجوارها على "البسطة" الكبيرة، وعلى درجات السلم الخشبى.. تجلس "أم العربي" "أمي" فى "فسحة" بيتها بجوار الباب أمام "البسطة" الكبيرة.

فى موسم "الجمبري" يتحلقن حول "الطشت" الكبير لا يحلو تقشير الجمبرى إلا على حكايات "أم سعد".

تقول "أم العربي": كل واحدة تمد "حلتها".. تسمى و تكبش من...

الصينية الكبيرة.. فيها كل الجمبرى الذى تم تقشيره..

تضع فى الحلل و هى تقول: بختك يا أبو بخيت

تعرف عدد كل أسرة.. لا ينظر أحد إلى يدها فالكل عينه مليانة.

نشم رائحته الفواحة من أول الشارع ونحن قادمون من المدرسة، خاصة "المدفونة" فى الحلة النحاسية الكبيرة، التى لا بد أن يرقص فيها عم "محفوظ" مبيض النحاس مرة فى الأسبوع على الأقل.

ما أشهى هذا الأرز البنى المختلط بالجمبرى الطازج.. ماهرات هؤلاء النسوة فى طبخ كل ما يخرج من البحر، الحارات ضيقة والبيوت ضيقة وقلوب الناس واسعة بيضاء وعامرة، والبركة من الله كما تقول "ماما نعيمة" "أم العربى" يثقن بها يسلمن لها القيادة عن طيب خاطر. تنظم "الجمعية" وترتب أدوارها فهى الأعلم بظروف الجميع، تحتضن المولود الجديد.. تؤذن فى أذنه لحظة ميلاده، وتطوف به فى البخور يوم "السبوع"، تخرم آذان الفتيات وتنصح الأمهات بختان أولادهن و بناتهن إذا آن الأوان..

تقول للداية: "خفى إيدك.. حاجة كده باسمن ومن"

تضحك "أم العربي".. "أمي" حتى تدمع عيناها و"أم سعد" تحكى كيف اقتادها الناس إلى قسم الشرطة و "سعد" على كتفها لا يكف عن الصراخ، لم يصدقوا أنه ابنها من دمها و لحمها، "لأم سعد" أداؤها الخاص عندما تحكى.

تقول أمى: لا تصدقوا "أم سعد" لو قالت: البحر ملآن بالماء

- ستجدنى في" الفوطية" قريبا من "كلوت بك"

- الفوطية كبيرة ألم يقل لك فى أى "عَطفة "؟

"عطفة"! كلمة جديده على أذنيه. .أول كلمة يسمعها من المعجم القاهرى.

الصيف عندنا موسم الماء. . المالح أولا، بعده العذب، بعده الملابس الخفيفة النظيفة، والهواء المنعش، ما الذى أتى بى إلى هذا الجحيم؟

هده التعب والعرق وهذه الحقيبة التى تزداد ثقلا مع الوقت، ينتقل بها من ورشة إلى ورشة. . فتحة صغيرة فى جدار ثم تنفتح على قبو مظلم ممتد.

يتفرس فى هذه الوجوه الضامرة، وهذه الكائنات الممصوصة التى تشبه الفئران، خلعوا قمصانهم، منكبون فوق البنك، عيونهم فى نعل الحذاء أو فى وجهه، أذرعهم النحيلة تتحرك بسرعة و حذق، رغم الظلام والعرق والحر وقلة الهواء، ورائحة الجلد الفائحة.

يقول عمى "أحمد": القاهرة ملعونة تأخذ الرجل لحما وترميه عظما، ومع ذلك من أراد أن يمسك فلوسا فليذهب إلى القاهرة، أما الصنعة فإنها فى الإسكندرية الإسكندرية حاضرة دائماً مع هذا العم الوسيم الذى يشبه نجوم السينما، يقف أمام مرآة الدولاب الكبير يمشط

شعرة الطويل يعدل "البوجودينو"، يضع "الكولونيا" ذات الرائحة المميزة.

يأتى بلا ميعاد، أحياناً فى الصيف وأحياناً فى الشتاء، يأتى مبتهجاً وبالغ الأناقة، يرفعنى فوق الدولاب الكبير ويقول: لن أنزلك إلا إذا بكيت.

وأنا أضحك وألمس سقف البيت الأبيض العالى، يمنحنى خمسة قروش كاملة ويضحك بصوت عالٍ مجلجل.

فى أوقات أخرى يزورنا مشعثاً وصامتاً، ولا أراه إلا فى المساء، يأكل ثم ينام على الكنبة الكبيرة بجانب الراديو "الفيليبس" الكبير، يستمع إلى "أم كلثوم" فى الظلام، وكما يأتى فجأة يختفى.

يقولون على "الأورنة" "الإمة" والنساء يشربن دم "الترسة" المذبوحة ساخناً، ويقولون "أحيه" هذا اللفظ الذى لو قالته المرأة عندنا لذبحها أهلها.

يتكلم عن سينما "الهامبرا" "وريالتو" "وماجيستك"،
أقول: كما أخذوا سينما "ريالتو" يعطوننا سينما "الهامبرا"
يضحك ويقول: "الإسكندرية" جميلة بصحيح
أقول غاضبا: "بورسعيد" أجمل بلد فى الدنيا
يتكلم عن الخواجة صاحب العمل يقول: يحبني، يعطينى أعلى

أجر في الورشة، أنا آخر من يجلس على البنك وأول من يقوم، يمسك بالحذاء يقلبه بين يديه يضعه أمام الجميع ويقول: أريدكم أن تصنعوا أحذية مثل التي يصنعها "أحمد".

غريب الدقناوي

ورش "القاهرة" قذرة وقاسية ولها رائحة نفاذة.

كيف يتحمل "سعد" الحياة فى هذه القبور المتقيحة؟

تغور "القاهرة" بفلوسها يقول الأسطى "غريب الدقناوي" وهو يضع الجوزة بقرف ".. يلعب الجميع الكرة "الكياس" فى الشارع أمام الورشة ويظل الأسطى "غريب" جالساً أمام "بنكه" وتحت قدميه "سعد" لا يفارقه، يجهز له "الجوزة" و"كراسى المعسل المعمر بالحشيش".. الوحيد الذى يحشش وهو يعمل، فهو أسطى الجميع.. الكبار قبل الصغار.

يحكى لى "سعد" عن ورشة الأسطى "غريب" فى القاهرة، وكيف جرى المال فى يديه فتزوج قاهريتين جميلتين، واحدة سمراء والأخرى بيضاء،

يفتح سعد عينيه على آخرهما ثم يقول فى صوتٍ خفيض: كان ينام معهما فى سرير واحد.

الآن ضاعت الصحة والفلوس وها هو فى ورشة عمى أحمد يحكى القصص التى لا تنتهى عن النساء.

يقول: النسوان لا تحب البخيل

ثم يتنهد ويقول: الحمد لله على الفقر والجدعنة

إذا دخلت عليه القهوة لا يمكن أن تدفع الحساب، فى الخناقات يدافع عن صديقه بروحه، ولا ينظر فى وجه جارته، رغم ولعه الشديد بالنساء.

لماذا كلما أراه أتذكر "انطونى كوين" فى "مدافع نافارون" وفى "زوربا اليوناني" وأتخيله دائماً فى دور الأسطى "غريب الدقناوي".. هذا العجوز الطويل بشعره الرمادى الجميل و"الكاريه" فى مقدمة رأسه مثل عرف الديك، وهذه الشعرات المهملة الساقطة على جبهته، وشاربه الذى يكتمل به هذا الوجه الرجولى الوسيم وهذه الأناقة البسيطة الراقية وهذه القصص العجيبة عن النساء.

يخرج من "زقاق" ليدخل فى "زقاق".. كل هذه البيوت القديمة والمشربيات والمساجد والأسبلة، خذوا سنينى والجامعة وكل شىء فقط دعونى أسكن هنا.

بينه وبين المكان ألفة دفينة أمر متصل بالجذور، بالجينات، بالتاريخ والجغرافية، والثقافة والدين، والحضارة والوجود، شىء فى الدم والأعصاب.

لم يعد يرى وجوه العابرين، عبر البوابة المستحيلة، خرج من سلطان الزمن، هذه الورش تختبئ تحت إبط التاريخ، هذه السلالم الصخرية القديمة ينزلها أو يصعدها.. كيف سمحوا لهذه الورش القذرة أن تزعج التاريخ بهذه الصورة البشعة؟

يضحك الرجل القاهرى ويقول: هذه المبانى ملك للحكومة وهى خرائب كما ترى.

دخل الميضة معه حقيبته القديمة التى يزداد ثقلها مع الوقت، خلع حذاءه الجديد، لبس القبقاب الخشبى الضخم، كاد أن يقع وهو يرفع رأسه حتى يرى سقف المكان العالي، الجدران قديمة وحجارة الأرض الضخمة حفرت فيها أقدام الناس، وهذه الرطوبة المعتقة، والهواء.. كل هواء القاهرة معبأ فى هذا المسجد الكبير.

حاول أن يركز فى الصلاة، عندما انتهى أخيرا جلس على الحصير الرطب بجوار العامود العملاق يتأمل هذا التاريخ الحى.

لوكاندة السعادة

فى لوكاندة السعادة فى أول شارع "كلوت" بك من جهة "العتبة" قريبا من قهوة "الجعافرة"، قضى أول ليلة فى القاهرة، جلس فى البلكونة الصغيرة ذات السور الحديدى الرفيع ينظر إلى الشارع العتيق، أين يا رجل النساء الفاتنات الواقفات على النواصى وعلى عتبات البيوت؟.. على الواقف "بشلن" وعلى السرير "ببريزة".. أين أنت يا "سعد"؟ أين أنت أيها الكاذب الكبير؟

هدأت حركة الترام، دخل الليل فى سكون الفجر ومازال الصهد يفح فى هذه الحجرة الكئيبة، لا يستطيع أن يضع جسده على السرير، أين الهواء يا ناس ؟ أليس فى هذه المدينة اللعينة نسمة واحدة من الهواء؟

يعود إلى بلكونته الصغيرة المعلقة بين السماء والأرض،

لا لون لهذه البيوت العابسة، فقط هذا الغبار الذى رآه أول مرة فى محطة مصر، كل ظل هو شبح لامرأة، كل قطة تموء صوت لأنثى شبقة.

صوت أمه: "ما يضيعش الراجل إلا النسوان"

صوت أبيه: "مفيش مره تضيع راجل"

إننى ضائع هناك فى حارة "البكري"، سحرتنى فتاة جميلة لا قلب لها

- بكره تنسى "النسوان فى مصر هينسوك اسمك"

- ليتنى أصدقك يا "سعد".. أنت لا تعرف ما بقلبى

أطلت من الشرق، شمس يوم قاهرى جديد، أيقظت بأظافرها هذا الكائن المتخشب، فى هذه البلكونة الصغيرة ذات السور الحديدى، والمعلقة بين السماء والأرض.

قال المسئول: المدينة مكتملة، لماذا لم تتقدم فى الميعاد؟

ثمانية عشر عاما وأنت تجهزنى لهذا اليوم، ولم تعرف يا أبى أن للمدينة الجامعية ميعادا للتقديم.

مالك والمدينة الجامعية، قلت: سأرسله للجامعة وهاأنت قد أرسلتنى، بحقيبتى القديمة وعشرة الجنيهات التى لم تعد بعد عشرة جنيهات، أنت لا تعرف الفرق بين أن أسكن فى الجنة وبين أن أتشرد وحيدا فى مدينة مخيفة مثل القاهرة، وكيف لك أن تعرف ولم يسبقنى من أبناء الحارة سوى ابنة المخبر التى يتباهى بها فى كل مناسبة وفى كل غير مناسبة.

- الجامعة "مش بعص" وليست مفتوحة لكل من هب ودب

آه يا ابن الكلب أنت لا تعرف - وربما تعرف - لماذا لا أستطيع أن أرد عليك، بالأمس فقط كان يتذلل أن تذاكر معى "شريفة".. لم تدفع الرسوم.. فلم تتسلم الكتب المدرسية

قال "عم محمود" الحلاق: الله يكون فى عون أم البنات.. كيف تتحمل هذا المخلوق البارد.. " قالوا مين أبرد من الحلاق قالوا اللى يحلق ولا يدفعش ".. وياريت لسانه حلو.. ياترى بنته اللى فى مصر راميه بلاها على مين ؟

قال الكابتن "فرج": أعوذ بالله فقر وعنطزة

رجل قصير بهذا الختم على قفاه وهذا الوشم الأخضر على جانبى رأسه المستدير بلا رقبة، على هذين الكتفين الضيقتين.

لا يتذكر أحد متى رآه أول مرة

يقول "أبو عوض" البقال: ربما أتى مع الفيضان إلى البحر المالح

يقول الكابتن "فرج": يجيء الصعيدى على بلاص مش أو على بلاص عسل، وهذا جاء على بلاص خره.

يرد "أبوعوض": من قال لك إنه صعيدي، الصعايدة "رجاله"، لو كان منهم لعرفوه وظهر له أهل وعشيرة.. هذا رجل مقطوع من شجرة شوك

يقول الحلاق: "يمكن عامل عملة مش ولا بد وأهله متبريين منه"

يقف لحظات فوق الحجر الأبيض الكبير، الذى يملأ المسافة، بين

عتبة "المندرة" ولحم الشارع الحي، يخرج دراجته السوداء الكبيرة، يغلق الباب الخشبي وراءه، ويسير على أرضية الحارة البازلتية السوداء، حتى عندما يصل إلى شارع "أسوان" العريض، يستمر في السير على الإسفلت، لا يركب دراجته إلا بعد أن يبتعد عن العيون.. لايحب أحدا.. ولم أر واحدا يحبه.

مدينة السعادة

ثلاثة أيام كبيسة وأنا أحرث المنطقة المحيطة بالجامعة، "بين السرايات"، "عزبة أبو قتاتة"، ليس ارتفاع الإيجار فقط، ببساطة لا أرتاح لهذه الأماكن المزدحمة، ثم إن مستوى الأماكن المعروضة أقل دائما من قيمة الإيجار، وأنا أريد مكانا أرتاح فيه وبثمن مناسب.

أجلس فى حديقة "الأورمان" تحت شجرة من تلك الأشجار الجميلة الغريبة، أمر الملك بإحضارها من أقطار الأرض لهذه الحديقة الرائعة، أكيد لم يكن من أهدافه أن تكون موئلا لهذا المخلوق الفقير القادم من أقصى شمال مصر، يستظل من الشمس الحارقة وفى يده رغيف الفول، كل لحظة ترقب وكل موقف مفاجأة وكل قرش أصرفه استنزاف يجب أن يكون فى أضيق الحدود.

فى "مدينة السعادة" "بإمبابة"، أخذ الرجل نفسا طويلا وقال: خذ لقمة يا بنى، أكيد لم تأكل منذ الصباح

- أشكرك أكلت منذ قليل

- "أنت بخيل والا إيه" أنا لا يسكن عندى بخيل يا "سهير" هاتى القلة "لأخوك"

من يراه الآن لا يراه منذ قليل وهو يساومنى على الإيجار

- ستة جنيهات كتير يا حاج

- إنها ثلاث غرف، وأنت تقول معك زميلان

وافق الرجل أخيرا على أربعة جنيهات ونصف.

من يجد مكانا مناسبا يعمل حساب الأخر. قال عم "مسعد" وهو يغادر قهوة "الجعافرة" ممسكا بيد ابنه "أحمد"،

قابلتهما بعد ذلك فى عمارة "عمر الجيزاوي" أقصد سجن "عمر الجيزاوي"،

زنازين ملتصقة بجوار بعضها متر فى متر والليلة "ببريزة" والدفع مقدما،

مكان للطوارئ أرخص كثيرا من "لوكاندة السعادة"، صحيح طارت "البريزة" لكن الحمد لله ها أنا ذا فى بيت حقيقى وناس طيبين.

قال عم "مسعد" بعد أن عدل نظارته السميكة فوق عينيه: المكان مناسب والله أنت "جدع" يا أبوعرب، كيف وصلت إلى هذا المكان ؟

- أنت لا تعرف يا عم "مسعد"، إنها رحلة طويلة، طويلة جدا.

يذكرنى مولد "إسماعيل الإمبابي" "بحارة العيد" فى "بورسعيد"، نفس المراجيح، نفس الألعاب تقريبا، الروح فقط هى المختلفة،

ربما الاختلاف الكبير فى الناس، فلاحون بسطاء وهادئون، لفرحهم وبهجتهم حدود، ليسوا مثلنا الحواجز مرفوعة ولا حدّ لعواطفنا، يعجبون بفتوتنا وشكلنا المبهج الغريب، يندهشون من جرأتنا واقتحامنا وكسرنا للمألوف، فيهم عبق الأرض وثباتها، وفينا خفة الماء ونزق البحر.

لا توجد فى مولد "الإمبابي" عربات اليد المظللة بملاءات السرير، حولها الدكك الخشبية، كل طفل أمامه طبق "البكلويز" الابيض الساخن ورائحته المختلطة برائحة الثوم، وعلى رأس العربة وابور الجاز يزمجر تحت الإناء الفواح.

.. لا يوجد "البكلويز" الأبيض إلا فى البحيرة، مثل بندقة كبيرة، "صدفته" مضلعة تشبه "الصدفة" المرسومة على "الاسترنات" العملاقة التى تمخر القناة وفى جوفها بترول العرب المسروق.

"البكلويز" الأحمر والأسود فى "القنال الداخلي"، أقرب إلى شكل اللوزة الكبيرة، "صدفته" رخامية ملساء.

لا أحب الاحتباس مع "الحاوي" أعلم أنه دجال، ولم يدهشنى أيضا "بريللو" الإيطالى و دورانه "بالموتوسيكل" فى برميله الخشبى الكبير، أحس أننى أستطيع أن أفعل أكثر منه حتى "بموتوسيكل" "حواتر" "الماتشليز" الثقيل.

حينما ترانا يرتفع صوتها: "قرب قرب.. فتح عينك تاكل ملبن"

هذه الغجرية النحيلة بردائها المزركش، وعينيها الكحيلتين،

أقوم بالاستعراض المجاني، أقبض على البندقية بيد واحدة، وأصوب من أوضاع صعبة، ثم أختتم استعراضى بأن أضع تعريفة مخرومة أمام البمبة،

مع صوت الفرقعة يقفز "البلاسي" فى الهواء فرحا كطفل، وقد فتح عينيه الصغيرتين خلف نظارته السميكة، لم أرَ استدارة عينيه الصغيرتين إلا فى مولد "إسماعيل الإمبابي".

يرتفع صوتها مع كل فرقعة ببهجة ذات معنى، وقد وضعت أصابعها الرفيعة فوق ذراعى " قرب قرب تاكل ملبن قرب قرب تاكل ملبن".

عندما أصبح وحدى آخر الليل، تشعلنى لمسة أصابعها الرفيعة، ويوقظ كل شياطينى صوتها الأنثوى المبحوح " قرب قرب.. فتح عينك تاكل ملبن "، وأظل أتقلب فى فراشى حتى الصباح .

أبلة أزهار

منذ متى سرى حبها فى دمى ؟ لا أستطيع أن أحدد البداية..

"رشاد أفندي"، مدرسة السلام الإبتدائية.. هذا المدير السمين،

يقول فى كل مرة: جئت فى وقتك يا "محمد"، غدا عيد ميلاد زوجتي،

ترفع زوجته البيضاء السمينة وجهها عن إبرة "التريكو"، تنظر إلى زوجها الكذاب ثم تعود إلى الصوف مرة أخرى، تجلس صامتة فى أقصى يسار المكتب، لم تنتبه إلى وجودنا إلا فى لحظة الكلام عنها .

يجهز أبى "التورتة" ذات الأدوار، علب البندق واللوز والجوز المغطى بطبقة من الشيكولاتة، "الفنضان" الأحمر، والأخضر، والأصفر، والبرتقالى.

يقول "رشاد أفندي": لا تنسَ "الشو" يا "محمد"

لا يصنع أحد "الشو" كما يصنعة أبي،

يقول: السر فى "الكريمة" يا بنى

حول الشمعة البيضاء الكبيرة، يرسم أبى الحروف الإنجليزية Happy BirtH Day يرسمها بالفنضان الأصفر المتوهج .

ظل الخواجة "جورجي" يكتب الأحرف "الإنجليزية" فوق "التورتة"، حتى اكتشف براعة أبى فى رسمها .

يقول أبى: عيب ألاّ تنهى عملك وحدك وبيدك يا بنى

بسبب حلويات أبي، أدخلنى "رشاد أفندي" مدرسته قبل السن القانونية،

حفظت المناهج حتى مللت من التكرار، المدرسات يتسامرن وأنا أقرأ الدرس، أقول من رأسى، لم أعد أنظر إلى الورق، أقول وعقلى مع المدرسات، يحكين " نكات خارجة" ويضحكن، سمعت من أفواههن ألفاظا قبيحة لم أفهم معناها فى وقتها، تقول أبلة "أزهار" للتلاميذ بعد أن تجلسنى على حجرها وتقبلنى فى شفتى: أريد منكم أن تقرءوا كما يقرأ العربى

بيتها قريب من بيتنا، أجمع الدفاتر من التلاميذ، أجلس فى البلكونة الخشبية الواسعة، أمامى طبق الحلوى وكوب العصير، أنظر إلى الشارع ثم تعود عينى إلى داخل البيت أراها وهى تتحرك أو تجلس إلى مكتبها تنظر فى دفاترنا،

رائعة الجمال، سمراء، شعرها كستنائي، يترجرج جسدها داخل

القميص البصلي بلا أكمام ومفتوح الصدر، ذراعان متناغمان، وصدر متفجر.. تضبطنى متلبسا بالنظر إلى لحمها المضيء تحت القماش الشفاف، يحمر وجهي، أنظر إلى الأرض فى خجل وارتباك، تضحك فى خبث وتقوم، تجلسنى على حجرها وتقبلنى فى فمي، ضربات خفيفة سريعة متنقلة، ثم تطبق بشفتيها الكبيرتين الساخنتين، لا تتركنى إلا بعد أن أتلهّب وأذوق شهدها.

مع أبلة "أزهار" ترعرعت أحاسيسى الأولى بالنساء، حتى عندما اكتمل إدراكي كانت أبلة "أزهار" هى النموذج الأساس.

يضحك عمى ونحن فى السينما عندما أقول: "مارلين مونرو" تشبه أبلة "أزهار"

- هذه شقراء و"أزهار" سمراء أين وجه الشبه يا فالح ؟

أخجل أن أقول له: نفس الشفتين الساخنتين الممتلئتين بالدم، نفس التقاطيع الجميلة المتفتحة، وتسريحة الشعر، وهذه الرجرجة وهى تسير، ونظرة العين الناعسة التي تزلزل الروح، والصوت الذى يشبه الفحيح .

ربما لا تدرك "أزهار" أو ربما كانت تدرك ما تفعله بى فى هذه السن المبكرة، تنظر إلى فى الفصل وتضحك بلا سبب، يحمر وجهي، أغضى فى خجل فتزداد ضحكا، وظل هذا سرنا فترة طويلة .

"مسكين والد حسان".. تسيل دموعى وأنا أراه ينزلق على قشرة الموز وتنكسر ساقه، أدعو الله فى سرى أن يحفظ ساق أبي، "والولد الطماع" أدخل يده فى "برطمان" الحلوى ولم يستطع أن يخرجها، و"القرد وبائع الطرابيش"، هذه القرود الشياطين المولعة بالتقليد.

قلت: أريد أن اجلس جنب "شريفة"

تقول أبلة أزهار: أنت هنا فى الأمام، الألفة لا يجلس إلا فى الأمام

يجلس "الدكتور"جنب "شريفة" ولد طويل نحيف برموش مسلخة ونظرات شاردة، "بربوره" فى طرف أنفه على الدوام.

تقول أبلة "أزهار": " دكتور مرة واحدة، جتك نيلة، قرفتنى من الدكاترة، كان لازم يسموك أبو "بربور"

أحسد "الدكتور"، لا أريد أن أكون "ألفة" الفصل، أريد فقط أن أجلس بجوار "شريفة".. تسللت إلى شغاف قلبى هى وهذا العلم الأخضر ذو الهلال والنجوم، ورائحة الكتب الجديدة، وأقلام الرصاص، والممحاة الكبيرة المربعة، وعلبة الألوان، ولوح الإردواز، أتسلمها قبل بداية العام، أضعها فى حقيبتى القماش التى تشبه المخلاة الصغيرة، فى البيت أفردها على سريرى وأظل أتشممها طوال اليوم، أقلب صفحاتها الصقيلة الملتصقة، أتشمم حبر الطباعة الطازج، أدخل عالم الخيال الذى أنتظره من العام للعام .

شريفة

كانت الابتدائية سنوات أربع، على بختي، رأت الثورة أن تجعلها سنوات ست عجاف، كرهت نفسى من الملل، ومن تكرار المناهج التافهة، ولولا حبى الشديد للكتب ورائحتها "ولشريفة" ولأبي، لفررت من المدرسة.

هل كان تفوقى من أجل شريفة؟

لا أستطيع أن أجزم، ففى هذا الوقت المبكر لم تكن حتى تنظر إلي، فأنا الأصغر والأكثر انطواء.

تمتعى بالحصانة بوصفى "ألفى" الفصل، وهذه الرعاية الخاصة من "رشاد أفندي" والمدرسات.. فى طابور الصباح يربت على رأسى ويقول: لا تنسَ أن تسلم على أبيك.. كل ذلك جعل بينى وبين بقيه التلاميذ حائطا وهميا، زاده ارتفاعا خجلى وشرودي، فسرهما التلاميذ غرورا وتعاليا.

فى "الفسحة" تلعب "شريفة" مع الأطفال، دائما أنا خارج دائرة

نظرها ودائما هى فى مركز رؤيتي، ومع الزمن بعدت أنا واقتربت هى حتى تلبّستنى..

يرتدى "توفيق" بائع الحلوى ملابس الكشافة، "الشورت الكاكي" والمنديل الأحمر حول رقبته، وعلى رأسه "الباريه الصغير"، لا يكفى لحجب شعرة الغزير البنى اللامع، وجهه قمحى مضىء، وعيناه تشعان بالثقة والا بداع .

قبل دخولنا فى الصباح نلتف حوله فى دائرة كبيرة، يرسم بالطباشير الملون على الأرض لوحات رائعة، مثل التى نراها فى مجلات الأطفال، قصصا مصورة نتابعها يوما بعد يوم، قبل دخولنا "الحوش" بدقائق ينتهى من الرسم، يخرج مزماره يبتعد قليلا حتى لا تدهس أقدامنا الصغيرة لوحته الجميلة، نتجمع حوله فى انتظار لعبة "البخت"، قراطيس الحلوى المدببة مثل رأس الحربة والمغلّفة فى ورق أبيض، مغروس فى منتصفها أعواد الخشب الرفيعة، فى كل عود، الخيط المربوط بإحكام، ندفع المليم ونشد الخيط، يقفز المحظوظون فرحا عندما تتلألأ العملة المعدنية البيضاء داخل المخروط السكرى الشفا ف، تعريفة مخرومة، أحيانا قرش أبيض مخروم .

ارتبكت خطاى وأنا أتقدم نحو "شريفة" بالمخروط السحري، يشع من داخلة القرش الأبيض المخروم، وقفت قليلا تنظر إلىّ صامتة، ثم

مدت يدها بسرعة، وضعت الحلوى فى فمها ومضت تقفز مبتهجة نحو شلتها الصغيرة، وأنا واقف فى مكاني، جامد مثل تمثال بشرى من الحجر.

عبد الحليم شحاتة

قال "أحمد شحاتة" وهو يضع الثلج على رأسى: ستقتل نفسك يا "أهبل" والله هى وأخواتها السبع لا يساوين طرف إصبعك الصغير، ألم يحكِ لك أخى "عبد الحليم" ؟

يعرف "عبد الحليم" أسرار بنات شارعنا بنتا بنتا، يأتى إلى "إمبابة" فى سيارة الوزارة السوداء الكبيرة ذات الستائر، يتحدث إلى السائق ثم إلى "عبد التواب" الذى يقف مزهوا ينظر إلى جيرانه ولسان حاله يقول: هؤلاء سكان بيتى هل يسكن فى بيوتكم مثل سكانى ؟

سمع "عبد الحليم" وزيرالأوقاف فى الراديو يقول: أنا مدين بما أنا فيه لأستاذى ومثلى الأعلى الشيخ "شحاتة"

فى اليوم التالى كان "عبد الحليم" فى مكتبه، أخذ العزاء فى أبيه وأخذ أيضا لنفسه وظيفة كبيرة فى مكتب وزير "السد العالي"، ولأخيه "أحمد" وظيفة مماثلة فى الإدارة العامة لشركة "المقاولون العرب".. ودخل أخوه الأصغر الكلية الحربية.

هذا البرنامج الإذاعي، "ليلة القدر" لآل الشيخ "شحاتة"،
لم يتصور أحد وقتها أنه من الممكن أن يخرج من ظهر العالم أكثر من فاسد.

فى القاهرة كلما رأى "عبد الحليم" فتاة جميلة تزوجها.

يقول وهو يضحك: فتيات حارة البكرى أفسدننى لم تعد تملأ عينى إمرأة بعدهن لم احترم "عبد الحليم" أبدا، كان يفضح البنات بشكل تأباه مروءة الرجل.

تنبهر الفتاه بشكله الوسيم ومركزه المرموق وسيارته السوداء الكبيرة وهذه النظرة الصادقة من عينيه الواسعتين، ما أسرع تغرغرهما بالدمع وهو يضحك، فما بالك فى المواقف "الدراما تيكية"، حسب تعبيره .

يتلذذ عبد الحليم وهو يقص علينا قصته، من النظرة الأولى وحتى وقوع الفتاة فى براثن شبكته العنكبوتية،

يقول فى ثقة: لا توجد على الأرض امرأة تستعصى على "عبد الحليم"

أتعجب من قدره الله الذى وضع كل هذا الشر فى هذا الوجه الملائكي،

بعد قليل تراه على حقيقته، فيطلقها إن سارت الأمور بلا مشاكل

وكانت "بنت ناس"، أحيانا لا يخلو الأمر من قضايا ومطالبات مالية لم يدفعها أبدا.. أصبح خبيرا فى مثل هذه القضايا.

يقول "أحمد شحاتة": "عبد الحليم" غاوى مشاكل " النسوان ملقحة على قفا من يشيل يعنى لازم الجواز ؟ "

يقول "عبد الحليم": اخرس يا "زناوي" والله خسارة فيك اسم الشيخ "شحاتة"

مجنون شريفة

أخيرا جاءت القصيدة، قرأتها على "شحاتة" و"البلاسي" و"عرنوس"

إذا قرأت الشعر وضحك "شحاتة" أضربة بأقرب شيء إلى يدى،

قصيدة طويلة قلت فى آخرها:

سأحارب نفسى فى نفسى   ويطارد نومى أحلامه

وأمزق قلبى يا قلبى   وأكسّر فى الصدر سهامه

قد أصبح إنسانا آخر   والدنيا قد تعرف قدري

قد أصبح شيئا مذكورا   لا تنخر منى من يدرى؟

فلعلى إن حان خلاصى   وأتانى قدرى يا قدرى

أستلّ غرامك من قلبى   أطعنه وأمزق صدري

فغرامى مطرود يشقى   وغرامك يحفظه قلبي

وذنوب الناس خطاياهم   وذنوبى قلب فى جنبي

قال "عرنوس": الله يا "أبوعرب" قصيدة جميلة

وابتسم "البلاسي" ولم يعلق كعادته، قام "شحاتة" قبل نهاية القصيدة وهو يضع يده على فمه، أغلق حجرته بالمفتاح، وجاء صوته من بعيد، لازم تروح لدكتور، أكيد نهايتك مثل مجنون "ليلى"، تسير عريانا فى الشارع والعيال "يحدفوك" بالطوب ويقولون مجنون "شريفة"، مجنون "شريفة" .

فى كل مرة أندم على قراءة شعرى أمام "شحاتة"،

أقول: صحيح.. لا تلقِ بالدرِ أمام "الخنازير"

وفى كل مرة أيضا لا أستطيع أن أصبر على القصيدة، أنادى عم "مسعد البلاسي" بالليل أو بالنهار، يستمع ويتذوق ويقول رأيه الذكي،

كسر غرورى هذا الرجل العجوز بشعره الشعبي، أول مرة أتعرف على عبقرية "ابن عروس" وغيرة من فم هذا الرجل الحفاظة .

أصل الحكاية ريال بعشرين   لأحلف ولا تحلفونى

عمدة بلدكم قليل دين   جاب الغفر كتفوني

مين داداك داديه واجعل عيالك عبيده

ومين عاداك عاديه دى روحك مش ف ايده

ضـــربـــت كــفـــى بـكـفـى مـــا عـــاد بـــالـــيـــد حـيـلـة
أم الـــفـــلافـــل تـكـفـى الـــلـــى قـــروشـــه قـلـيـلـة

تسعفه ذاكرته دائما بالشعر المناسب لكل موقف

فى هذه الليلة قال:

عرقوبها يدبح الطير وبوزها بوز الحدادي
واللى أناها مشافش خير يا طول شماتة الأعادي

وقال أيضا:

من حبنا حبناه وصار متاعنا متاعه
ومن كرهنا كرهناه يحرم علينا اجتماعه

حتى أنت يا عم "مسعد"!!

ثم يقوم وهو يتثاءب: أسيبك تنام بكرة عندك كلية

فى الليل أرى "عبد الحليم" مرتديا الجلباب الصعيدى وله شنب كبير، يضربنى بالنبوت ويقول: أنا "ابن عروس" قم وبارزنى رجلا لرجل، أقوم من نومى مفزوعا، وأظل مستيقظا حتى الصباح .

سندخل تل أبيب

يستند إلى شكائر الرمل التى تسد فتحات الحوض العائم حتى منتصفها تقريبا، وضع سلاحه فى وضع الاستعداد، ينتظر هدفا لا يجىء، يمسح عن عينيه بخار اليود المملح، وذرات الرمل والدموع، وجهه محمص وجلده ساخن ومتفحم،

منذ أيام قليلة، كان يقف على سطوح بيت "عبد التواب" فى "إمبابة" ومعه "البلاسي" يراجعان الدروس، فالأيام امتحانات.. أول امتحانات لهما فى الجامعة، وكان معهما أيضا "عرنوس" و"شحاتة".. "عرنوس" بالفانلة يتدرب بكوز الإسمنت، مستعرضا جسده الجميل، و"شحاتة" وحده يعاكس فتيات الشارع، العجيب أننا لم نكن نعرف أن هذا المكان الجميل الشبيه ببيوتنا يملكه عمال "الترسانة البحرية".. لم نتخيل أنه يمكن أن تكون فى القاهرة "ترسانة بحرية"، أسسها "محمد علي" لبناء أسطول غزا به العالم، الأوروبيون البرابرة تكالبوا عليه، حرمونا من فرصة نادرة لقيادة الكون، هو أيضا أخطأ فى موقف

لا يحتمل الخطأ، ليته سمع كلام ابنه إبراهيم.. خشى "محمد علي" أن يذكر التاريخ أنه أسقط "الخلافة الإسلامية"، وهى ساقطة ساقطة، ألسنا أولى من الغزاة الكفرة، " وكان جحا أولى بلحم طوره ".. أكلوا الثور ثم ثنوا بالنعاج، صوت عبد الوهاب فى "الراديو الترانزستور"، بعده بقليل صوت "أحمد سعيد" يجلجل أسقطنا خمسين طائرة إسرائيلية، قواتنا على مشارف "تل أبيب".. قفز "عرنوس" فى الهواء، كاد يسقط من فوق السطوح لولا لطف الله .

تركنا الكتب والامتحانات، وأتينا إلى "بورسعيد"، الامتحان ينتظر ولكن دخول "تل أبيب" حدث لا يتكرر، قضينا الليل فى القطار، فى معسكر "الجلاء" فى "الإسماعيلية"، الكشافات تملأ السماء والقنابل تفرقع، أتى الصباح وتحرك القطار بالجرحى إلى "بورسعيد"، كل شىء يهون فى سبيل تحرير فلسطين .

تجمع الطلبة الجامعيون فى "المعهد العالى التجاري" أمام حديقة "سعد زغلول"، فى الليل أحضروا صناديق الأسلحة، بنادق نصف آلية جديدة بشحمها عليها التاج الملكي، مكتوب تحته "الحرس الملكي"، على ضوء الشموع غسلنا السلاح بالجاز وجففناه بملابسنا وانتظرنا، يوم اثنان ثلاثة ثم أتتنا الأيام الحزينة .

قلنا: نريد أن نحارب .

أخذونا إلى "ترعة الإسماعيلية"، أصابها العدو بقنابله ولا بد من رأب الصدع قبل الصباح، حتى لا يشعر الناس بقلة ماء الشرب فيصابوا بالذعر.

تسلخت أيدينا من الطين وشكائر الرمل، عدنا وقد هدنا الإعياء الكامل،

فهمنا الآن لماذا ثار "عرابي" على السخرة فى الجيش.. وانتظرنا.

قالوا: سلموا أسلحتكم

رفضنا

قال الضابط: لو كنتم جنودا نظاميين لضربناكم بالنار، الريس بنفسه يتابع أخباركم، سنلحقكم بفرق التدريب العسكرى حتى نجهزكم للقتال، وبعدها لنا معكم شأن آخر

فى "نادى المعارف" بجوار "الثانوية العسكرية" تدربنا على السقطة الأمامية والسقطة الجانبية والالتحام، والقتال بالسلاح الأبيض، وفرقة المتفجرات، والحرب الكيماوية، والصاعقة والآر بى جى، يدربنا عسكريون متخصصون على أعلى مستوى من الضابط إلى أقل رتبة عسكرية، لماذا لم يشترك هؤلاء فى الحرب ؟

بعد أن أعطونا بنادق آلية روسية جديدة، وقف المسئول الكبير يخطب فينا : إنه واجب قومى كبير أن تحملوا شرف حراسة الترسانة

البحرية.. الترسانة البحرية " تانى " يبدو أن كل مصائب مصر فى الترسانة البحرية

- إنكم تحرسون أكثر من مائتى مليون جنيه من عرق الشعب المصرى ودمه، أوشكت أن أقول له: إننا لم نترك الجامعة لنحرس مائتى مليون جنيه من عرق الشعب المصرى ودمه، جئنا لنقاتل وندخل تل أبيب مع الداخلين، لقد كاد "عرنوس" يموت وهو يصيح سندخل "تل أبيب" سندخل "تل أبيب" .

ماء ميت

تقع الترسانة البحرية فى مدخل القناة، على ضفتها الشرقية، أول ما تراه السفينة القادمة من البحر، أوناش عملاقة ثابتة وأوناش صغيرة متحركة على عجلات ضخمة قياسا إلى حجمها، فى مقدمها شوكتان من الصلب كسنى فيل وعنابر كانت مثل خلية النحل، هى الآن ملاعب للريح والصمت، فقط صوت الماء الذى يرتطم أسفل هذا الحوض العائم فى رتابة مملة تدفع إلى الجنون، حتى الماء لم يعد هو الماء، أصبح نظيفا جدا ورائقا على غير العادة، خال من الحياة، جثة مائية ممددة، هو نفسه لم يعد الشخص الذى كان قبل الخامس من يونيو، اهتزت كل الثوابت.. صحا من نومه فجأة وجد نفسه شخصا آخر، أفاق على الحقيقة المفزعة، فى من يثق ؟ صوت "أحمد سعيد" يدوى فى رأسه كابوس فظيع، ليس له ملاذ الآن سوى هذه البندقية الآلية، هل تكفى حجم الخوف والغضب الذى يغلى فى عروقه ؟ كيف خدرونا كل هذا الوقت ؟ ممن ينتقم وبمن يبدأ ؟

تطفو "الشمندورة" بكاملها فوق سطح الماء، مستسلمة كزورق

فقد مجدافيه، حلقتها فارغة من الحبل الضخم الطويل وهو يشدها إلى الماء.. يمتد بينها وبين السفينة المزبوطة، وتظل تصارعه طوال الوقت .. وعمال الرباط الأشداء، يبدون فوقها من بعيد مثل دمى صغيرة مشاغبة، وفلايك "البمبوطية" الصغيرة ذات المجدافين، وبضائعهم العجيبة، وكلامهم الذى لا يشبه الكلام، مزيج من كل اللغات وأياديهم التى تتكلم قبل ألسنتهم .. فقط الفراغ وهذه النوارس التى تحوم فى تكاسل مريب.

أول طلقة ثم تتوالى الطلقات.. إنهم الزملاء يقتلون الوقت بالرصاص، يطلقون على تلك النوارس المسكينة، لم يشترك أبدا فى هذا القتل الرخيص، هاجسه الذى يطارده، هو أن يخالف الأوامر، ويطلق على تلك الطائرات الرمادية الشوهاء.

تأتى من الجنوب، تتسحب على سطح الماء وبطول القناة، ثم تميل فجأة على جانبها الأيمن متجهة إلى الشرق.

فعلها عمه فى "ستة وخمسين" ولم يسقط طائرة واحدة، ولكنه فعلها، هم أيضا أحرقوا "المناخ" كله ولم يصلوا إليه، إنها قصته التى لا يزال يحيا بها، ولكنها الترسانة البحرية أكثر من مائتى مليون جنيه من عرق الشعب المصرى ودمه.

قال الضابط وهو ينظر فى انكسار إلى الطائرة الرمادية المتسحبة

على سطح الماء، وكأنه يقرأ هواجسى: البندقية لا تسقط الطائرة.. لا تسقط الطائرة إلا الطائرة أو الصاروخ.

كيف لهذه الكلاب تلغو فى مائنا.. لا بد من وسيلة.

سأخبر جمال عبد الناصر

إذا رأيت ضفدعا بشريا، أقتله قبل أن يستريح، فهو مدرب تدريبا عاليا على القتل السريع.. قنابل الأعماق مضادة للضفادع البشرية.

ألقينا قنابل كثيرة ولم نر ضفدعا بشريا واحدا، فقط هذه المجزرة البشعة للأسماك، يأخذ الزملاء بعضها يشونه على الحطب ويأكلون.

انتبه للأمر ضابط سكندرى كبير، يبجمعها ويضعها فى صناديق خشبية مع الثلج ويسافر بها، مع الوقت تألمت لمشهد السمك المختنق، وغضبت من تصرفه الأنانى.

قلت: سأخبر "جمال عبد الناصر".. لا أدرى كيف جرت الكلمات على لساني، اصفر وجه الضابط.. أصبح استخدامنا للقنابل وقت الحاجة وفيما خصصت له.

فى وقت الراحة خلعت ملابسي، ألقيت بنفسى فى الماء، سبحت حتى وصلت إلى اللسان الصخرى الرفيع، الممتد فى اتجاه الشمال نحو البحر، أسير بحذر فوق الصخور الملساء، أخرجت من فمى الخيط

الذى ربطت فى طرفه ما يشبه السنارة، ألقيته بين الصخور المغمورة بالماء.. كما توقعت تماما المكان مليء بهذه السمكة السوداء ذات الرأس البشع، تبتلع أى شىء يلمع، أضع السمكة فى الكيس المربوط فى وسطى ثم ألقى الخيط فى الماء، وجدت الضابط الشاب بجانبى

- كيف تصطاد بلا طعم ؟

- سمكة غبية ولكنها لذيذة تعيش فقط فى جحورها بين الصخور ولا تغادرها أبدا

- ألا تفكر فى الضفدع البشرى وأنت فى هذا المكان المقطوع؟

- ليته يأتى فأقتله وأستريح، أو يقتلنى فأستريح، الموت أفضل من هذا الانتظار السخيف

- إنها الحرب والأكثر تحملا هو الذى يفوز فى النهاية، هيا لنجرب طعم هذا السمك الأسود، هل أنت متأكد أنه غير سام ولن يقتلنا ؟

كان صباحا مشرقا قال الضابط: سنخرج فى مهمة قتالية.. جنوب" بورفؤاد" بعد الملاحات، قريبا من " رأس العش"، حفرنا الخنادق الخلفية، أمامنا "حفر برميلية" فيها ضباط وجنود من فرقة "الآر ب ج"، انتظروا حتى دخل القول الإسرائيلى إلى المدق الوحيد المؤدى إلى المدينة، فى وقت واحد انفجرت الدبابة الأولى والدبابة

الأخيرة وبدأت المتعة الحقيقية، أحلى صوت فى الدنيا صوت ارتطام الصاروخ بالدبابة الإسرائيلية، إنهم يتساقطون كالذباب، من يخرج عن المدق ينغرس فى الأرض المالحة كذبابة تتخبط فى طبق من العسل، وقعوا فى المصيدة، ولم يعاودوا المحاولة بعدها أبدا .

حسين الضبع

كنت أوزع وقتى بين الصيد وبين الحراسة، التى لم أقتنع بها أبدا ومع ذلك أنفذها بأمانة، وبين النوم فى مكان حراستى، على لوح خشبى وجدته فوق شوكتى أحد "الأوناش" الصغيرة، أسند اللوح الخشبى بجوار فتحة الحوض العائم وأبدأ التدريب بقذف السونكي، الضفدع البشرى يجيد القتل بالسونكي، زدت المسافة مع الوقت، وجدت فى الأمر تسلية كبيرة، يطير النصل فى الهواء محدثا هذه الرفة الخفيفة، وبعد أن يلف عدة لفات ينغرس فى الخشب بصوت مكتوم، اصطدم النصل عرضيا بصفحة اللوح الخشبي، قفز إلى الماء وأنا وراءه، المسافة ثابتة بينى وبين هذا النصل اللامع الذى يقودنى إلى الموت.

صوت أبى: اعمل حساب الصعود

تركت النصل اللامع ولم يبق من نفسى إلا القليل.

صوت أبى: لا تغلق عينيك فى الماء

الماء فوقى قسمان، قسم شفاف كبلور يترجرج، تنحل فيه الشمس

خيوطا قزحية، وقسم معتم صفيق، عدلت وضعى فى اتجاه الضوء، واحتاج ذلك منى إلى مزيد من النفس، خلا صدرى تماما من الهواء، الثوانى دهور، والموت قاب قوسين أو هو أدنى، وبلغت الروح الحلقوم .

قال الغواص العجوز لا يفعل ما فعلت إلا مجنون، ولا ينجو مما فعلت سوى محظوظ قلبه بارد، لو خفت لهلكت، لا أرض تحت هذا الحوض العائم، فقط حائطان اسمنتيان يستمران فى الميل، يلتقيان على عمق أكثر من خمسين مترا، حتى نحن و ببدلة الغوص الحديدية الثقيلة ذات الخرطوم، لا نستطيع أن نتحمل هذا العامود الثقيل من الماء .

– أشكرك يا أبى صوتك أنقذ حياتى

فعلها "حسين الضبع" زين شباب كلية الأداب، مات غرقا تحت عوامة الجامعة أمام فندق "شيراتون" الذى كان وقتها تحت التأسيس.. رأيت "الضبع" أول مرة فى معسكر "الجوالة"، كان معنا "توفيق عبد العظيم" و"حمدى كيرة" و"سامى صلاح" و"محمد الشهاوي" و"شوقي" و"محمد حاكم" و"علاء حمروش" و"إبراهيم النمس" و "قاسم عبده قاسم" و"على" و"فاطمة".. أسماء كثيرة لشباب مثل سنابل القمح. يومها قال لى: قابلنى فى نادى تجديف الجامعة

ذهبت إلى هذه العوامة الخضراء الكبيرة أمام "شيراتون"

قلت له: هذه المركب لا تشبه المراكب الرفيعة المرصوصة على الأرفف بطول العوامة

قال: تركب "المدرسة" أولا ثم "اليول" وبعد شهر تركب معنا المراكب الرفيعة "آوت ريجر"

بضعة أيام وكنت بجانبه في المركب الرفيعة .

قلت له: من أين لك بهذا الجسد الجميل ؟

قال: إنه التجديف ولا شيء غير التجديف، الرياضة الوحيدة التى تحرك كل عضلة فى جسمك ولا تنسَ، القوة هى الأساس، والشكل يأتى مع الوقت،

يتكلم عن التجديف كما يتكلم عن فتاة رائعة يعشقها.

يدربنا الكابتن "بسطامي" هذا النحيف خفيف الوزن "باريز" مصر، مثل الجوكى فى سباق الخيل، به يفوز المركب أو يخسر السباق .

بعد تدريبات الإحماء على الأرض، ننزل للتسخين فى الماء، ندور حول جزيرة المنيل فى مركب هى الأثقل من بين مراكب النادي، ثم نلف حول الجزيرة الكبيرة من تحت كوبرى "إمبابة" فى الشمال بمركب السباق الأساسية.

أرتدى ملابسى بعد الدش الساخن، أخرج من النادى بلا جسد،

أشعر أننى ريشة تطير فى الهواء.

فى إحدى المرات خرجت من النادى ركبت "تروللي" أربعة وأربعين الذاهب إلى "إمبابة"، بعد أن أخذ الترووللى سرعته خطف الواقف إلى جوارى ساعتى وقفز من "التروللي" وأنا وراءه، لم يصدق عينيه عندما رآنى فوق كتفيه، مد يده بالساعة واستمر يجرى وهو ينظر خلفه كالذى يرى عفريتا.

ساعة أبى.. " تل " قديمة، ذات ميناء بيضاء باهتة، يفتحها أمامى ويقول ماكينة أصلية مثل "الألماز" ثم يغلق الغطاء الفضى الذى يبرق من الداخل فى دوائر صغيرة مثل النجوم.. لولا أنى أعلم مدى حب أبى لها لألقيتها فى النيل واسترحت، فى إحدى المرات سقطت منى وأنا أقف على "الأزأ" قبل النزول إلى المركب، سقطت بين الشقوق فرحت ساعتها قلت: "جاءت من عند الله"،

نزلت إلى المركب وما أن عدلت جسمى، حتى رأيتها تتلألأ أمامى فوق "الفنطاس" الحديدى، الذى يحمل العوامة كلها، مددت يدى و أخذتها وأنا أضحك .

هذا "الفنطاس" الحديدى الكبير، مات تحته "حسين الضبع" زين شباب الكلية، فزنا يومها بسباق الجمهورية، هزمنا فريق الشرطة منافسنا التقليدي، كنا نضحك و نحن نرى الجنود عابسين يعرفون ماذا

ينتظرهم على يد الضباط، قفزنا إلى الماء ابتهاجاً بالنصر، خرجنا ولم يخرج "حسين الضبع"، نخلنا النيل كله حتى كوبرى "إمبابة" القديم ولم نجده .. وجدناه بعد ذلك عالقاً تحت هذا الفنطاس اللعين، بكى معنا جنود "الأمن المركزى" حزنًا على الضبع، أيها الموت كيف تختار فرائسك؟

رجب

لم نعد نطيق الاحتباس.. فى نوبة من نوبات هياجه قال "رجب" للضابط: الرجال يموتون ولا يفرون من مواجهة الأعداء

هبط الصمت على الجميع، تحول الهواء إلى زجاج بارد.. سلم الضابط سلاحه للرقيب وأمر "رجب" أن يفعل مثل ما فعل.. تضارب الرجلان بالأيدى رغم ذهول الجميع، حوّمت الطائرات الإسرائيلية على الموقع، فى لحظة عاد الضابط ضابطا.. أخذ سلاحه وأمر الجميع بالانتشار، بعد الغارة بحث الرجلان عن بعضهما وتعانقا وسط الدموع.

هل ذاق أحد مرارة الانكسار مثلنا ؟

هكذا "رجب" دائم الانفعال ومنفلت اللسان، رغم قلبه الأبيض، وجسده الضخم..

لا يفهم معنى للانتظار، الأعداء فى سيناء وهو ما زال حيا، وواجب الأحياء أن يثأروا للموتى .

وجدوها فرصة للسيطرة علينا، الأكثر التزاما وتفوقا فى التدريب

يخرج إلى سيناء فى فرق صغيرة، نرتدى ملابس الصيادين، نبحر معهم فى مراكبهم الصغيرة، ننزل إلى الشاطئ نحضر أسلحة القتلى ومتعلقاتهم الشخصية، بعد أن نقوم بدفنهم، لم نتألم من رؤية الموتى، رؤية الأحياء أشد قسوة وعذابا، شباب مصر، فلذات كبدها، جلود مسلخة، أقدام متورمة تنز بالقروح، وعيون ذاهلة منطفئة .

- تركونا فى العراء.. الأوامر متضاربة حتى عندما تأكد أمر الانسحاب لم نصدق.. لماذا إذن عبرنا بهذا العدد الكبير ؟

- إنها جريمة، خيانة عظمى، من يدفع الثمن ؟

- الطيارون اليهود يلعبون مع أبنائنا لعبة القط والفأر، يقتلونهم دهسا ورعبا، وكذلك تفعل دباباتهم

- حتى فى ظل هذا التفوق الكاسح لم يقابلوننا رجلا لرجل

- إننا لم نحارب لقد وقعنا فى شرك كبير

- لا يمكن أن تغفر مصر لمن تسبب فى هذا

.. كنا نغلى بالرغبة فى الثأر

- لا تتحرر الأوطان بالرغبات وإنما بالتدريب الجيد والصبر، ثم إنه ثأرنا نحن قبل أن يكون ثأر أى مصرى آخر، وأقسم بالله العظيم إننا قادرون عليه.. قال الضابط وهو يسير خلفى حذرا فوق الصخور الزلقة

- بعد كل الذى رأينا فى سيناء هل تنتظر من أحد أن يصدقك؟

قبض على يدى بقوة قال: أنت أولى أن تصدقنى، يجب أن تصدقنى.. ثم صمت والتفت إلى الماء الأزرق الصافى الذى يترجرج بين الصخور.

قال: كيف تضع هذا الجمبرى المسكين فى السنارة ؟

قلت: ابدأ من الذيل وستجد الرأس على سن السنارة.. السمكة هدفها الرأس قال ابن خلدون: الأمم كالسمك تفسد من رؤسها

- هذا كلام خطير يا بشروش.

الريس مصطفى

جلست بجانب الريس "مصطفى" على اللوح الخشبى العريض، أمسكت بالمجداف، الصمت يلف الجميع، جلس "رجب" فى مقدمة "الفلوكة" مستنداً إلى كومة الغزل وقد وضع كفه فوق جبينه ينظر فى السماء، يرقب الطائرات، و"العباسي" خلفنا يهتز فى رتابة كمن يركب جملا .

ما إن اقتربنا من البر حتى قفز الريس "مصطفى" إلى الماء يدفع معنا المركب فوق الرمال البيضاء.

نفس الرمل.. نفس الماء، لماذا أرتعد كلما لمست قدمى هذه الأرض؟

– إيه يا رجل، أنا أنادى عليك، أترك الشعر الآن، لا وقت لدينا، انتبه جيدا، قال "رجب" وهو يشد خطوته: سأذهب فى هذا الاتجاه ومعى "العباسي"، وأنت والريس "مصطفى" فى هذا الاتجاه، الأوامر أن نعود بسرعة

بدأوا يرصدون هذه الفلايك الصغيرة فى طلعاتها المتكررة، فى

البداية لم تكن الطائرات تلتفت إلينا، بالأمس حومت فوقنا واحدة، أخذت وضع الهجوم ثم أطلقت رصاصها، سقطت دفعة "الفيكرز" جميعها في الماء.

قال الريس "مصطفى": ربما أراد هذا الكلب أن يتسلى

قال الضابط: أو ربما بدءوا ينتبهون إليكم كونوا على حذر

- ابن من من الصيادين يا بني ؟

- ابنك يا ريس "مصطفى"

- صحيح ابن من أنا لم أرك في البحر من قبل

- أبي حلواني يا ريس "مصطفى"

- سبحان الله ظننتك واحدا منا

- أنا منكم يا ريس "مصطفى" خالي له مركب كبيرة في البحيرة

كان الأحياء يدفنون الموتى ويجمعون سلاحهم ومتعلقاتهم، حتى لو بقي واحد فقط، فإنه يقوم بالأمر.

لا يتكلمون، فقط يومئون برؤوسهم المشعثة، وجوههم التي حرقتها الشمس جامدة متشابهة، لم أر أبداً فرحة النجاة في أي وجه.. بعد أن يأكل ويشرب يجلس مطأطئ الرأس ينظر في قاع القارب، ويظل صامتا حتى نصل.

مركز التجمع مدرسة "الفتح الابتدائية" فيها أخواتنا: "سعاد

الخميسي" و"أحلام الألفي" واختها فاتن و"فاطمة" و"زينب".. فتيات فى عمر الزهور يقمن بتنظيفهم وتضميد جراحهم، ويستبدلون ملابسهم.. بعد يومين أو ثلاثة تعود لهم وجوههم، يسافرون إلى قراهم ومدنهم.

قالت أختى "سعاد": صدقنى يا أخى لا أتذكر أى وجه منهم، أراكم فيهم أنت و"العباسي" و"رجب" و"عبد السلام الألفي".. لو رأيت واحداً منهم فى الطريق لن أعرفه.

قلت لها: لقد رأيت نفسى فى كل شخص دفنته فى سيناء.. إننى ميت يسير على قدمين، ولن تهدأ روحى حتى أثأر لشهدائنا، أوأعود إلى قبرى، هناك فى سيناء.

منكفئا على وجهه فى الرمل، دمه لا يزال طازجا

- قال رجب: أين سلاحه؟

- ليس معه سلاح

- السلاح موجود ابحثوا فى المنطقة.. لا توجد سوى آثار قدميه

نظرت إليه، قبضته اليمنى منقبضة فى تشنج، قريبا من وجهه الذى اختفى نصفه الأيسر فى الرمال، يده اليسرى مختفية بكاملها تحت جسده الضخم، عندما "عدلناه" وجدنا يسراه تحتضن السلاح فى صدره، فى وقت واحد نظرنا إلى قبضته اليمنى.

- قلت: نأخذ السلاح وندفنه كما هو

- قال "العباسي": نرى ما فى قبضته أولا.. ربما نجد شيئا هاما

أخرجنا الصورة الصغيرة بحذر، من بين أصابعه المتشنجة.. فتاة ريفية شابة، آخر شيء رآه قبل نومته الأخيرة، لا أتذكر من بكى أولا، انفجرنا مرة واحدة وفى وقت واحد، ربما رأى كل واحد منا نفسه فى هذا المسجى، رأى حبيبته، وطنه فى هذه الورقة الصغيرة، احتواها فى قبضته الكبيرة، يحميها من الموت، من الأعداء، رسالة واضحة، وطنكم عرضكم، خذوا بثأري، لا تقعوا فى هذه الورطة مرة أخرى.

ما إن استقرت المركب فوق سطح الماء، فى الغاطس خلف الأمواج حتى صرخ "رجب": هذه الطائرة ستطلق علينا

دارت الطائرة فوقنا دورة كاملة قبل أن تأخذ وضع الهجوم.. انفجر الدم الأحمر فى وجهى مثل نافورة حمراء، احتضن "العباسي" الريس "مصطفى"، ربط ذراعه تحت الإبط بحبل قديم من حبال الصيد، ارتعشت عندما لمست كفى الكف المبتورة، التقطها من بين أقدامي، خلع "رجب" قميصه لفها فيه واحتضنها وهو يرتجف كطائر فزع، الوحيد الذى ظل مطمئنا وهادئا هوالريس "مصطفى" كان يطمئننا ويهدئ من روعنا و يشجعنى وقد جلست بين المجدافين.

إنها النار التى أحرقتنى عند شاطئ البحيرة الجنوبى تحرق الآن

كل ذرة فى بدني، بدأت بذراعى ثم اشتملت جسدى كله، اللحظة الحرجة التى عرفتها فى الملاحات، أين لسع النار؟

.. توقف الإحساس بالألم إلا من تلك الرجفة عند ملامسة الكف الطرية المخضبة..

كفاىّ.. مضغتان من اللحم والدم .. دمى ودم الريس مصطفى.

جرب.. تعرف

فى البداية اقترب عدد كتيبة الجامعيين من المائة، مع الوقت بدأت فى التقلص، الأعلى صوتا والأكثر تشنجا هو الأسرع فى تسليم البطاطين.

من حق أى فرد أن يسلم سلاحه فى "السلاحليك" ويأخذ تصريحا لساعات، يزور أهله ويعود، إذا سلم البطاطين مع السلاح نضحك، نعلم انه تصريح بلا عودة.

قلت لصديقى الضابط: لماذا لا تأخذ تصريحا وتزور أهلك؟

قال: بعد النصر.. الحرب لم تنته يا أخى

ركبنا اللنش الصغير، عبرنا القناة إلى بورسعيد، سرنا فى الشوارع الخالية، يتجمع الناس أمام محل "أبو سمرة" لشراء الطعمية ولتبادل الأحاديث والأخبار.

قال واحد بصوت عال: نفسى أعرف الجاسوس "ابن الكلب"، نحرقه كما فعلنا فى سنة وخمسين.

تشن الإذاعة الإسرائيلية حربها النفسية على المدينة، ذكروا محل "أبو سمرة" وبعض ما يتكلم فيه الناس.

قالت أمي: قلبى كان "حاسس" أنك ستأتى اليوم، وجهها أبيض يشع بالفرح، رفض الضابط فى البداية أن يضع اللحم الأبيض الشهي فى فمه قال: ما هذا الذى تأكلونه ؟.. كابوريا الحجر الخضراء بشكلها البشع ورائحتها التى تخطف الروح

- لا تحكم على الأشياء من ظاهرها.. جرب تعرف

حملنا طعاما كثيرا ونحن عائدين إلى الترسانة.

قال الضابط: هل تعلم أن أمك تشبه أمي تماما.. نفس الشكل والكلام، حينما قبلتنى أحسست أننى فى حضن أمي، ثم صمت وقال: لقد وعدتها أن أعود بالنصر.. تحشرج الصوت ثم انقطع، سرنا صامتين، وجدنا اللنش فى انتظارنا، تحركنا نحو الضفة الأخرى، التوتر يسود المكان، وجوه غريبة نراها لأول مرة ترافقنا ونحن متجهين إلى السلاحليك.

قال الضابط: الأسطول الروسى فى القناة ستراه من موقعك.

قبل أيام أغرقت زوارق الطوربيد المصرية المدمرة الإسرائيلية "إيلات"، كانت مياهنا الإقليمية فى تلك الأيام مسرحا لعمليات حربية ناجحة، الضفادع البشرية المصرية وصلت إلى أرض العدو..

بدأت حرب الاستنزاف، بقدر ما نسترد من معنوياتنا يفقد العدو من ثقته بنفسه .

قلت في غضب: هل جاؤوا لاحتلالنا

قال: جاؤا لمساعدتنا

قلت: جاؤوا لتهدئة الموقف وتكتيف ايدينا.. لا فرق بين روسيا وأمريكا، لن تتحرر الأرض إلا بسواعد أبنائها.. أمريكا تزود إسرائيل بالسلاح، روسيا تزودهم بالبشر، وهذا فى رأيى أخطر من السلاح.

القطع الحربية الروسية حوائط رمادية عالية تسد النور أمامي، تجثم بثقلها على قلبى .

حينما انطلقت الرصاصات، قامت الدنيا ولم تقعد، الكشافات حولت موقعى إلى نهار، قنابل الأعماق تمزق المياه من حولى .

جاء الضابط مسرعا قال: بُلْ فى ماسورة البندقية، البول يزيل اثر البارود، الوجوه الغريبة تتشمم سلاحي، يذهبون ثم يعودون.

قال كبيرهم: انطلقت الرصاصات من هنا، نحن نعرف، هل رأيت أحدا من زملائك قريبا من هذا المكان؟

فيما بعد قالوا: قل لنا من أشار عليك أن تبول فى البندقية ؟

قلت: ما هذا "القرف" أبول فى بندقيتى ! ! ولماذا؟

ظلت علاقتى بصديقى عادية حتى لا نلفت الأنظار.

قلت: ليس لى أخ من أبى وأمي، أنت أخى روحا ودما
ضحك وقال: أخى الصغير صورة منك شكلا وأفكارا
أصرّ زميلى "سامى الطباخ" أن يستضيفنى فى منزله فى القناطر..
لم أوافق إلا بعد أن قال: سترى استراحة الرئيس وربما تراه شخصيا.

بيت "سامي" فى الضفة الأخرى للنيل، تماما فى مواجهة استراحة "جمال عبد الناصر".. وضعنا الكتب ثم خرجنا نتمشى فوق "القناطر" التى بناها "محمد علي"، الحجر القديم والبوابات الحديدية وآلاتها الصدئة، والليل والهواء العليل، والنيل ينساب تحتنا قويا وصامتا وحزينا، نغنى أغانى "أم كلثوم" بصوت واحد حتى وصلنا الضفة الأخرى.

- مساء الخير يا "سامي" تفضل.. صاح واحد من الحرس

جلسنا وشربنا الشاي، ونحن عائدين لم نتبادل كلمة واحدة، قطعنا القناطر الخيرية صامتين.. هنا يعيش "جمال عبد الناصر"، وهؤلاء حرسه يرونه ويتكلمون معه ويعرفون "سامى الطباخ".. يرحبون به وبضيوفه، يا بختك يا سامى.

فى هذا الوقت بالذات رأيته على رأس الجسر

- البشروش؟

- حضرة الضابط ؟ أين أنت يا رجل ؟ ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ مكانك فى الجبهة

- اطمئن مصر كلها جبهة . . كل الأماكن تؤدى إلى سيناء

وجهه مشرق وسعيد.. عرفت فيما بعد، قريبا من هذا المكان، تدرب الجيش المصرى على عبور القناة .

الهجرة

قال عم "مسعد البلاسي": إقامتى مؤقتة، المدينة تهجّر إجباريا، بدءوا بأصحاب المهن الحرة، لو خيرت بين الموت ومغادرة بورسعيد لاخترت الموت.. ولكنها الأوامر المشددة.

قال عم "عبد التواب": أنتم على راسى، ولكن ما الهدف من تهجير الناس بهذا الشكل السريع؟

- هذه المدن فى مرمى المدافع الإسرائيلية .. لا يريدون أن نصبح رهينة فى أيدى اليهود، سأشترى بيتاً فى المنطقة، حاول أن تساعدنى.. إقامتى عندكم مؤقتة.

تكدست العائلة كلها فى الحجرة الكبيرة المطلة على الشارع، بينها وبين حجرتى حجرة "أحمد شحاتة" الصغيرة، شباك حجرتى يطل على المطبخ وهى الأقرب إلى الحمام وأنا بطبيعتى عاشقٌ للعزلة والاكتفاء، ولكن كيف تعتزل وبجانبك هذا الرجل العجوز الرائع؟

كان عم "مسعد البلاسي" وقبل أن يطعن فى السن ويخرج إلى

المعاش مديراً لمخازن شركة تعمل فى بيع الأدوات الصحية، يملكها واحد من الأجانب الذين كانوا يسيطرون على اقتصاد المدينة.

رجل واعٍ ذكى يعمل حساب المستقبل، يسكن فى "بورسعيد" وله بيت كبيرٍ فى "بورفؤاد"، اشتراه بثمن بخس وتركه للزمن، رجل عجوز مستور.

انقلب حالنا رأساً على عقب، أصبحنا مقيدين، فقدنا حريتنا وانطلاقنا،

قال "عرنوس" وهو يطبخ الطعام يوم الجمعة: ما الذى يجبركم على ذلك اتركوا لهم الشقة، سآخذ "البشروش" معى فى "اسبرنج" و "شحاتة" سيجد ألفاً من أصحابه الأوساخ.

"إسبرنج" عمارة شهيرة فى ميدان الجيزة تطل على النيل يسكن "عرنوس" على سطوحها فى حجرة صغيرة جداً وبائسة، تقع مباشرة تحت الإعلان الضخم، الزجاجة العملاقة تحتها كلمة "اسبرنج" بالأحرف "اللاتينية" التى ترقص فى النيون.

يضربه "شحاتة" على يده فتسقط قطعة اللحم فى المرق الساخن

- أريد أن أعرف هل استوى اللحم؟

- هذه رابع قطعة، سنأكلها نيئة، هل استرحت؟

عرفت "شحاتة" عن طريق "عرنوس" كانا زميلى دراسة، يعمل

"عرنوس" فى شركة الكهرباء و "شحاتة" فى "المقاولون العرب".

أبو "شحاتة" عالم أزهرى صاحب مدارس "الشيخ شحاتة" هى أقرب إلى "الكتاتيب"، عرفت فيما بعد أنهم سكان بيت "طه الصغير" قبل أن يصبح عمارة يافعة تطل على بيتنا فى حارة "البكري"، وأن الديوك الرومية التى كنت أعاكسها من سطوحنا هى ديوكهم، وأن "شحاتة" يعرف بنات شارعنا ربما أكثر منى، حتى بعد أن رحلوا عن المنطقة، ينطبق عليه المثل الشهير "يخرج من ظهر العالم فاسد".

فى أول إجازة صيفية قلت "لشحاتة": لك كل فتيات الشارع ما عدا صاحبة الشباك المفتوح.. تفتحه عندما ترانى فوق السطوح أذاكر، وتغلقه بعد نزولي، وظل هذا الاتفاق غير المكتوب مستمرا طوال العام، طالبة فى معهد المعلمات تركب "الأتوبيس" وأركب أنا "التروللى باص"، بين محطتى ومحطتها شارع عريض، أحياناً تتعمد التأخير وأظل أنتظر حتى ترحل.

لم أتكلم معها ولا كلمة واحدة، عام كامل ولم أجرؤ حتى على مجرد الابتسام، قلبى ليس معى.. قلبى أسير فى حارة "البكري".

عدت من الإجازة صعدت متلهفاً إلى السطوح وكان الشباك مفتوحًا، لحظات وأغلق بشدة فى وجهى.

– ماذا حدث يا "شحاتة"؟

يضحك "شحاتة" فى خبث ويقول: لا شىء

حكى لى أخيراً قال: قلت لها لا أمل فى "البشروش" إنه مجنون بجارته في بورسعيد، تمالك نفسه قليلا ثم قال: سحرتنى هذه الفتاة.. حب حقيقى يا صديقي، ذهبت لأبيها ووافق، هى لم توافق، فعلت المستحيل حتى كلمتنى قالت: لا أريد الزواج منك ولا من صديقك، اذهبا إلى الجحيم.

مرض "شحاتة" وكنا نضحك عليه أنا "وعرنوس"، لم نصدق أنه واقع فى الحب فعلاً، حينما حضرت زفافه فيما بعد كانت، زوجته صورة كاملة لفتاة إمبابة.

قال: أرجوك لا تخبرها بشيء، دعها على عماها

الهجرة هذا الكائن المتوحش
الذى يعتصر القلب

حملت شارعى معى فى كل شارع غريب، حملته بحجارته وناسه، شريطاً "سينيمائيا" وقف فجأة عند موضع ما، عند لحظة ما، زماناً متحجراً يتأبى على الاتصال، فجوة أبدية بين الوهم والوهم، بين الشيء والظل، عرفت أننى سأعيش مشروخاً وإلى الا بد.

تعرف أنها تملكني، وأعرف أننى عالق فى حبلها، وظل عقلى حاضراً ورافضاً

قالت: تذكر أنت مدرس لغة "إنجليزية".. قلت ذلك لزملائي، أرجوك لا تحرجنى أمامهم.. عرفت ساعتها أى شقاء قادم تحت غمامتها، وددت لو طعنت قلبى وألقيته للكلاب.. الهزيمة المركزية فى حياتي، منها تفرعت كل هزائمى.

أتصرف مع الناس بوصفهم نموذجاً مكرراً لأسرتى الصغيرة، الرجال مثل أبى والنساء مثل أمى والفتيات مثل أخواتي، بنيت خطتى على هذه المعطيات الأولية.. توقعت نتائج باهرة لم أحققها

أبداً وحينما أدركت كان الوقت قد فات.

قال كمونة: أنت محسود يا رجل، انظر حواليك.. كلنا فقدنا حلمنا الأول إلا أنت، إذا لم يكن ذلك هو الانتصار فماذا يكون؟

- أنت لا تعرف يا كمونة.. حاولت السباحة على الرمل، وحاولت المشي على الماء، وحاربت حيث لا تنفع الحرب.

المحتوى



عرضت بعض ما كتبت على الروائي الكبير خيري شلبي؛ قلت له هذه بروفة إلى أن أجد اللغة المناسبة. قال الروايةَ تصنع لغتها طرحت كل ما عرفت من نظريات وواصلت الكتابة.

كتبت عما أظن أنني أعرف. كتبت عن نفسي وعن بورسعيد. كتبت شيئا يشبه السيرة الذاتية ولا يشبه كتابة أحد. لا "داريل" في رباعيته ولا "إدوار الخراط" في اسكندريته .

في الجزء الأول "البشروش" كتبت بورسعيد أيام 56 من عيني طفل وفي الجزء الثاني "الفرائس" رصدت هزيمة 67. وإن أمهلني العمر أكملت ما في يدي من أوراق البشروش .

تجليات أدبية

الثمن : جنيهان

www.gocp.gov.eg
www.odabaaelaqaleem.com.eg
www.atlas.gov.eg
www.gocp.gov.eg/thakafa
www.misrelmahrosa.gov.eg
www.studiesresesrch.gov.eg
www.masrahna.gov.eg

لوحة وتصميم